عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الثالث عشر

المكتب المصري الحديث

* وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

المفردات : ﴿ **أستخلصه** ﴾ : المراد أجعله خالصاً لنفسى لا يشاركنى فيه أحد . ﴿ **مكين** ﴾ : ذو مكانة ، ﴿ **يتبوأ** ﴾ : ينزل من مصر فى أى مكان أراده ، والمراد أنه صاحب الأمر .

﴿**وما أبرئ نفسى**﴾ تقول المرأة : ولست أبرئ نفسى ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأن﴿ **النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى** ﴾ أى إلا من عصمه الله تعالى﴿ **إن ربى غفور رحيم** ﴾

قوله تعالى ﴿ **وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينامكين أمين * قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ :

يقول تعالى إخباراً عن الملك ، حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ، ونزاهة عرضه مما نسب إليه ، قال : ﴿ **ائتونى به أستخلصه لنفسى** ﴾ أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى ﴿ **فلما كلمه** ﴾ أى خاطبه الملك وعرفه ، ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خُلُق وخَلْق وكمال قال له الملك ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ أى إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة .

فقال يوسف عليه السلام : ﴿ **اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهِل أمره للحاجة ، وذكر أنه ﴿ **حفيظ** ﴾ أى خازن أمين ، ﴿ **عليم** ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه .

وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ، ولما فيه من المصالح للناس ، وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيتصرف هو على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه ، وتكرمة له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ .

يقول تعالى ﴿**وكذلك مكَّنَّا ليوسف فى الأرض**﴾ أى أرض مصر ، ﴿ **يتبوأ منها حيث يشاء** ﴾ قال السدى : يتصرف فيها كيف يشاء .

وقال ابن جرير : يتخذ منها منزلا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار .

﴿ **نُصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ أى ما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ﴿ **ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ .

يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا ، كقوله فى حق سليمان ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾[1] .

والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر ، مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته ، وأسلم الملك على يدى يوسف عليه السلام ، قاله مجاهد .

وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك : ﴿ **اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ قال الملك : قد فعلت ، فولاه فيما ذكروا عمل أطفير ، وعزل أطفير عما كان عليه .

يقول الله عز وجل ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾

قال : فذكر لى . والله أعلم . أن أطفير هلك فى تلك الليالى وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة أطفير راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال لها : أليس هذا خيراً مما كنت تريدين ؟ .

قال : فيزعمون أنها قالت : أيها الصديق لا تلمنى ، فإنى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة فى ملك ودنيا ، وكان صاحبى لا يأتى النساء ، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك على ما رأيت . فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين .

وقال الفضيل بن عياض : وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف ، فقالت : الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، والملوك عبيداً بمعصيته .

فسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ،

مع يوسف وإخوته

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾

(١) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة ص .

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

المفردات : ﴿ **المعرفة والعرفان** ﴾ : معرفة الشئ بتفكر فى أثره وضده الإنكار . ﴿ **وجهّزهم** ﴾ : أى أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله . ﴿ **وجهاز السفر** ﴾ : أهبته وما يحتاج إليه فى قطع المسافة ومثله جهاز الميت والعروس (بالكسر والفتح وبهما قرئ) . ﴿ **أو فى الشىء** ﴾ : جعله وافياً تاماً . ﴿ **المنزلين** ﴾ : أى المضيفين للضيوف . ﴿ **نراوده** ﴾ : أى نخادع ونستميل برفق . ﴿ **لفاعلون** ﴾ : أى لقادرون على ذلك . ﴿ **لفتيانه** ﴾ : أى غلمانه الكيالين . ﴿ **بضاعتهم** ﴾ : أى التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدماً . ﴿ **والبضاعة** ﴾ : المال الذى يستعمل للتجارة . ﴿ **والرِّحال** ﴾ : واحدها رحل : وهو ما يوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الراكب وغيره . ﴿ **وانقلبوا** ﴾ أى رجعوا . ﴿ **والمتاع** ﴾ : ما ينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام . ﴿ **والبضاعة** ﴾ : ثمن ما كانوا أعطوه من الطعام . ﴿ **ونمير أهلنا** ﴾ أى نجلب لهم الميرة (بالكسر) وهى الطعام يجلبه الإنسان

من بلد إلى بلد . ﴿ **كيل بعير** ﴾ : أى حمل جمل فكيل بمعنى مكيل . ﴿ **ويسير** ﴾ : أى قليل لا يكثر على سخائه كما جاء فى قوله : ﴿ وما تلبثوا بها إلا يسيراً ﴾[1] أو سهل لا عسر فيه ، كما فى قوله : ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[2] . ﴿ **والمَوْثِق** ﴾ : العهد الموثق . ﴿ **إلا أن يحاط بكم** ﴾ : أى إلا أن تغلبوا على أمركم أو إلا أن تهلكوا فإن من يحيط به العدو يهلك غالباً. ﴿ **وكيل** ﴾ : أى مطلع رقيب فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه .

كان يوسف على خزائن أرض مصر ، وهو الحفيظ للقوت ، العليم بأساليب الصرف والإكثار من الزرع ، وقد كان الزمن زمن جدب وقحط عم مصر وما جاورها من البلاد ، كبلاد كنعان (فلسطين) لكن يوسف قد أُرسِل لمصر لإنقاذها من الجدب ، بل وفر من أقواتها ما كان يباع لجيرانها .

ولما علم يعقوب وبنوه بخيرات مصر ، وكانوا فى أشد الحاجة إلى الطعام ، أرسل أبناءه العشرة ليبتاعوا من عزيز مصر القوت ، ويعطوه الثمن بضاعة كانت معهم ، وكان يوسف لا يعطى الفرد إلا حمل بعير فقط ، توفيراً للمؤن .

وجاء أخوة يوسف العشرة فدخلوا عليه ، وهو فى أبهة السلطان ، فعرفهم لما وصل خبر مقدمهم إليه ورآهم بعينه ، أما هم فلم يعرفوه لتغير حاله ، واستبعاد أن يكون الطريد الشريد الملقى فى البئر عزيز مصر الذى يقوم بتوزيع الأقوات على الخلق .

ولما جهزهم بجهازهم ، أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله من الطعام ، وأعطاهم ما يحتاج إليه المسافر فى سفره ، وكانوا عشرة ، وطلبوا أكثر من حقهم ، طلبوا لأبويهم ولأخيهم الحادى عشر ، فإنه بقى فى خدمة أبويه الكبيرين ، أعطاهم حمل بعيرين بشرط أن يحضروا له أخاهم لأبيهم ليراه ...

ثم أخذ يحبب إليهم المجىء ثانية مع أخيهم بقوله : ألا ترون أنى أتم لكم الكيل الذى تكتالون ، وأريحكم فى سعره وصنفه ، وأنا خير المضيفين ، فقد أحسنت ضيافتكم وجهزتكم بزاد يكفيكم فى سفركم زيادة على تجارتكم .

ومن هنا يعلم أن اتهامه لهم بالتجسس بعيد ، وأخذ رهينة منهم أبعد .

يا بنى يعقوب : إن لم تحضروا لى أخاكم كما اتفقنا ، وعدتم تمتارون لأهلكم منعتكم من الكيل فى بلادى ، فضلا عن إيفائه وكماله ، ولا تقربوا بلادى ، فضلا عن الإحسان فى المعاملة والضيافة .

قالوا : أيها العزيز ﴿ **سنراود عنه أباه** ﴾ ونحتال بكل حيلة ، ونخادعه بكل خدعة ، حتى يسلم لنا بنيامين الذى يعتز به أبوه ، فهو خلف لأخيه المفقود ، ﴿ **وإنا لفاعلون** ﴾ ذلك إن شاء الله .

وقال يوسف لفتيانه الذين يتولون الكيل للتجار ﴿ **اجعلوا بضاعتهم** ﴾ التى جاءوا بها ثمناً للطعام – روى أنها كانت جلوداً وأداما -اجعلوها ﴿ **فى رحالهم** ﴾ لكى ﴿ **يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم** ﴾

---

(١) الآية ١٤ من سورة الأحزاب . (٢) الآية ٣٠ من سورة النساء .

فيكون ذلك أدعى لرجوعهم ثانية ، حيث يقفون على مدى إكرام العزيز لهم ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ حسبما أمرتهم بذلك ، طمعاً فى برنا ، وحسن معاملتنا .

﴿ **فلما رجعوا إلى أبيهم** ﴾ بعد هذه الرحلة ﴿ **قالوا** ﴾ بمجرد وصولهم ﴿ **يا أبانا** ﴾ إن عزيز مصر قد ﴿ **منع منا الكيل** ﴾ بعد هذه المرة ، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين كما طلب ، فأرسله معنا ﴿ **نكتل** ﴾ من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا : ونكون قد وفينا له بما شرط علينا ، وهو العزيز الذى أكرم وفادتنا ، وإنا يا أبانا لنحفظ أخانا فى ذهابنا وإيابنا .

قال يعقوب الشيخ الحزين على يوسف ، الذى لا يزال يذكره حتى ابيضت عيناه من الحزن : هل آمنكم عليه إلا ائتماناً كائتمانى لكم على أخيه يوسف من قبل ؟

على معنى : كيف آمنكم على ولدى بنيامين ، وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم ، وإنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه فى يوسف ، وضمنتم لى حفظه ، وقلتم : ﴿ **إنا له لحافظون** ﴾ فلم يحصل الأمن والحفظ سابقاً ، فكيف يحصل الآن ؟

يا بَنىّ:ما أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل !!

وظاهر الكلام يدل أنه أرسله معهم اعتماداً على حسن الظن بهم ، وأنه ما كان يرى علامات الحسد والحقد بينهم فى هذه اللحظة ، وتلبية لدعوة الحاجة إلى الطعام .

﴿ **فالله خير حافظا** ﴾ يحفظ لى ولدى ولا يجمع بين مصيبتين لى ﴿ **وهو أرحم الراحمين** ﴾ .

طلبوا من أبيهم هذا ساعة وصولهم ، وقبل فتح أمتعتهم .

﴿ **ولما فتحوا متاعهم** ﴾ وحطوا رحالهم ﴿ **وجدوا بضاعتهم** ﴾ التى أخذوها ثمناً لطعامهم وجدوها ﴿ **ردت إليهم** ﴾ ﴿ **قالوا** ﴾ تأييداً لطلبهم ﴿ **يا أبانا ما نبغى** ﴾ ؟

وماذا نطلب زيادة على ما وصفنا لك من إكرامه لوفادتنا ، وحرصه على راحتنا ؟

﴿ **هذه بضاعتنا ردت إلينا** ﴾ من حيث لا نشعر ، أليس هذا دليلا على منتهى الكرم ، وداعياً لأن نوفى له بما طلب ، ونحن إذا ذهبنا ثانية مع أخينا ﴿ **ونمير أهلنا** ﴾ ونحضر لهم الطعام بلا ثمن ﴿ **ونحفظ أخانا** ﴾ بنيامين بعنايتنا ورعايتنا فلا تخش عليه شيئاً ونزيد ﴿ **كيل بعير** ﴾ لأجله – إذ يوسف كان يعطى كل فرد حمل بعير فقط ، اقتصاداً وتوفيراً .

ونظهر أمامه بأنا صادقون فى دعوانا ، بأن لنا أخاً مع أبوينا يخدمهما ، وربما كان ذلك له تأثير عند العزيز .

وذلك أى البعير الزائد ﴿ **أمر يسير** ﴾ على مثل هذا الرجل الكريم الذى لو كان من نسل يعقوب ، لما أكرمنا هذا الإكرام .

قال يعقوب وقد تذكر حوادث الماضى ، وتمثلت له صورة يوسف : لن أرسل بنيامين معكم حتى تعطونى عهداً مؤكداً بإشهاد الله وقسمه ﴿ **لتأتننى به** ﴾ ولترجعنه لى ، فهو قرة عينى وسلوتى عن يوسف ، لتأتننى به على أى حال كنتم إلا فى حال يحيط بكم العدو ، أو الموت ، أو أى سبب يمنعكم عنى .

فلما أعطوه المواثيق ، قال يعقوب : ﴿ **الله على ما نقول** ﴾ جميعاً ﴿ **وكيل** ﴾ وهو نعم الرقيب الحفيظ ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

وقال : يا أولادى ﴿ **لا تدخلوا** ﴾ مصر ﴿ **من باب واحد** ﴾ولكن ﴿ **وادخلوا من أبواب متفرقة** ﴾ حتى لا يحسدكم حاسد ، أو يكيد لكم كائد ، فيحل بكم مكروه .

ورد عن النبى ﷺ : (إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر) ، (وأعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة)[1] .

وقوله ﷺ ، وقد أخبر بوعكة لبعض أصحابه من أثر حسد ، فقال : (علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا بركت ، إن العين حق ، توضأ له)[2] .

فتوضأ الحاسد ، ومعنى بركت قلت : تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه .

وهذا يفيد أن العين والحسد حق ، وأن علاجه الاستعاذة والرقى ، وعلى الحاسد أن يتوضأ ، وأن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين عندما يرى شيئاً (ومن شر حاسد إذا حسد)[3] .

يا بنى : اعملوا بنصيحتى ، واعلموا أنى ﴿ **وما أغنى عنكم من الله شيئاً** ﴾ ولا أدفع عنكم بتدبيرى من قضاء الله شيئاً ، إذ لا يغنى حذر من قدر ، ولكن اسلكوا الأسباب العادية ، مع العلم أن قضاء الله نافذ لا محالة ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ وحده له الحكم والأمر﴿ **عليه** ﴾ وحده ﴿ **توكلت** ﴾ ﴿ **وعليه** ﴾ وحده ﴿ **فليتوكل المتوكلون** ﴾ لا على غيره .

﴿ **ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان** ﴾ دخولهم على هذا الشكل ﴿ **يغنى عنهم من** ﴾ أمر ﴿ **الله** ﴾ شيئاً ولكن كانت هناك﴿ **حاجة فى نفس يعقوب** ﴾تدور بخلده أراد أن يظهرها لأبنائه ﴿ **قضاها** ﴾ وأظهرها بوصيته لأولاده من حيث لا يفطنون لها .

﴿ **إنه لذو علم** ﴾ وبصر بالأمور لما علمه ربه بالوحى والإلهام ، وتأويل الرؤيا الصادقة ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ ذلك .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٠) . وأبو داود فى السنة (٢٠) . وابن ماجه فى الطب (٣٦) .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى العين (١) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤٤٧) .

(٣) الآية ٥ من سورة الفلق .

يوسف وبنيامين

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾

المفردات : ﴿ **آوى إليه** ﴾ أى ضم إليه . ﴿ **الابتئاس** ﴾ : اجتلاب البؤس والشقاء . ﴿ **والسقاية** ﴾ : (بالكسر) وعاء يسقى به وبه ماء كان يكال للناس الطعام ويقدر بكيلة مصرية ١/ ١٢ من الأردب المصرى وهو الذى عبر عنه بصواع الملك . ﴿ **وأذن مؤذن** ﴾ : أى نادى مناد من التأذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشيء الذى تركه الآذن . ﴿ **والعير** ﴾ : الإبل التى عليها الأحمال والمراد أصحابها . ﴿ **زعيم** ﴾ : كفيل أجعله جزاء لمن يجيء به . ﴿ **الكيد** ﴾ : التدبير الذى يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدى إلى باطنه المراد منه. و ﴿ **دين الملك** ﴾ شرعه الذى يدين الله تعالى به .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ، ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه ، وما جرى له ، وعرفه أنه أخوه وقال له ﴿ **لا تبتئس** ﴾ أى لا تأسف على ما صنعوا بى وأمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرماً معظماً .

﴿ **فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم** ﴾ .

لما جهزهم ، وحمل لهم أبعرتهم طعاماً . أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية ، وهى إناء كان يشرب فيه ويكيل للناس من عزة الطعام إذ ذاك ، فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحدهم ، ثم نادى

مناد بينهم ﴿ **أيتها العير إنكم لسارقون** ﴾ فالتفتوا إلى المنادى وقالوا ﴿ **ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك** ﴾ أى صاعه الذى يكيل به ، ﴿ **ولمن جاء به حمل بعير** ﴾ وهذا من باب الجعالة ﴿ **وأنا به زعيم** ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة .

قوله تعالى ﴿ **قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين** ﴾

أى قالوا لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا . وسيرتنا ، من حين مجيئنا فى امتيازنا الأول ، وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا التى ردت إلينا مع غيرها ، أننا ما جئنا لنفسد فى أرض مصر بسرقة ولا غيرها مما فيه تعد على حقوق الناس .

﴿ **قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين** ﴾ أى قال فتيان يوسف لهم : فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى جحودكم للسرقة ، وادعائكم البراءة والنزاهة .

﴿ **قالوا جزاؤه من وجد فى رحله** ﴾ أى جزاؤه أخذ من وجد فى رحله ، وظهر أنه هو السارق له ، وجعل عبداً لصاحبه .

وقوله ﴿ **فهو جزاؤه** ﴾ تقرير للحكم السابق ، وتأكيد له بإعادته ، كما تقول : حق الضيف أن يكرم ، فهو حقه ، والقصد من الأول إفادة الحكم ، ومن الثانى إفادة أن ذلك هو الحق الواجب فى مثل هذا ، وقد كان الحكم فى شرع يعقوب أن يسترق السارق سنة . ﴿ **كذلك نجزى الظالمين** ﴾ أى مثل هذا الجزاء الأوفى نجزى الظالمين للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا ، فنحن أشد الناس عقاباً للسرقة وهذا تأكيد منهم بعد تأكيد لثقتهم ببراءة أنفسهم .

﴿ **فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه** ﴾ : أى فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشتمل عليها رحالهم ، إبْعاداً للشبهة وظن التهمة بطريقة الحيلة .

﴿ **ثم استخرجها من وعاء أخيه** ﴾ : أى ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه ، فأخرج السقاية منه .

﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ : أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفى كدنا ليوسف ، وألهمناه إياه ، وأوحينا إليه أن يفعله .

ذلك أن الحكمة الإلٰهية اقتضت تربية إخوة يوسف ، وعقابهم بما فرطوا فى يوسف ، واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم . يتوقف على أخذه بطريق لا جبر فيه ، ولا تقتضيه شريعة الملك ، وبه يذوقون ألم فراق بنيامين ومرارته ، فيما لا لوم فيه على أحد غير أنفسهم ، ولن يكون هذا الحكم منهم إلا بوقوع شبهة السرقة على بنيامين ، من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه ، وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته .

وفى هذا إيماء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة ، إذا لم يخالف شرعاً ثابتاً .

ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله : ﴿ **ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك** ﴾ : أى وما كان له ، ولا مما تبيحه أمانته لملك مصر أن يخالف شرعه الذى فوض له الحكم به ، وهو لا يبيح استرقاق السارق ، فما كان بالميسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على أنفسهم بشريعة يعقوب ، التى تبيح ذلك .

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة بحسب الظاهر ، لأنها تهمة باطلة ، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاماها إلا بوحى من الله ، بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيئته فقال : ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ أى أنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه ، لا أنه هو الذى اخترع هذه المكيدة .

﴿ **نرفع درجات من نشاء** ﴾ : أى نرفع من نشاء درجات كثيرة فى العلم والإيمان ، ونريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته فى كل شىء ، وفى هذا إيماء إلى أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات . ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ : أى وفوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه ، وأرفع درجة ، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شىء علماً ، وهو فوق كل ذى علم .

وخلاصة ذلك : أن إخوة يوسف كانوا علماء ، إلا أن يوسف كان أعلم منهم .

ماذا قالوا

* قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ

كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

المفردات : ﴿ **استيأسوا** ﴾ : يئسوا يأساً كثيراً . ﴿ **خلصوا** ﴾ : انفردوا عن الناس وتخلصوا منهم . ﴿ **نجياً** ﴾ : متناجين متشاورين . ﴿ **فرطتم** ﴾ : قصرتم . ﴿ **أبرح** ﴾ : أترك . ﴿ **سولت** ﴾ : زينت . ﴿ **يا أسفا** ﴾ : يا أسفى والأسف الحزن الشديد على ما فات . ﴿ **كظيم** ﴾ : مملوء غيظاً على أولاده ممسك له فى قلبه . ﴿ **حرضا** ﴾ الحرض المرض المشرف على الهلاك . ﴿ **بثى** ﴾ : البث فى الأصل إثارة الشيء وتفريعه ومنه بث الريح والمراد هنا إظهار ما انطوت عليه نفسه من الحزن . ﴿ **تحسسوا** ﴾ : تعرفوا أحوال يوسف بحواسكم . ﴿ **رَوْح الله** ﴾ : فرجه ورحمته .

قوله تعالى ﴿ **قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ : قالوا ذلك عندما رأوا صواع الملك يخرج من رحل بنيامين .

وفى هذا المقام روايات للمفسرين .

قال ابن عباس : سرق يوسف عليه السلام صنماً لجده — أبى أمه — من ذهب وفضة فكسره وألقاه فى الطريق ، فعيره بذلك إخوته ، وقد رواه عنه ابن مردويه مرفوعاً .

وقال محمد بن إسحق : عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغنى : أن عمته ابنة إسحق ، وكانت أكبر ولد إسحق ، وكانت عندها منطقة إسحق ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان من اختبأها عن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه ، يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته ، وكان لها به وله ، فلم تحب أحداً حبها إياه ، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام ، فأتاها فقال : يا أخته سلمى إلىّ يوسف ، فو الله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة . قالت : فو الله ما أنا بتاركته ، ثم قالت : فدعه عندى أياماً انظر إليه وأسكن عنه ، لعل ذلك يسلينى عنه أو كما قالت .

فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحق عليه السلام ، فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم ، فوجدوها مع يوسف ، فقالت : والله إنه لى سلم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب ، فأخبرته الخبر فقال : لها أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت .

قال : فهو الذى يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه ﴿ **إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ .

وهذا القول يدل على أن حسدهم ليوسف ما زال قائماً حتى هذه اللحظة التى قالوا فيها ما قالوا .

أما القول الذى أسره يوسف فى نفسه ، ولم يبده لهم ، فقوله : ﴿ **أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون** ﴾ إذ ما ورد عن سرقته لا يدل على أنه سارق ، بل إنه برىء الساحة نظيف اليدين .

ولقد لجأوا بعد ذلك إلى إثارة العاطفة فى نفس يوسف ليرد إليهم بنيامين ﴿ **قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه** ﴾ ذلك لأن أباه يحبه ، وقد فقد أخاه من قبل ، فذلك يشق على نفس أبيه ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ العادلين الرحماء .

فقال يوسف بمنطق الحق المبين ﴿ **معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده** ﴾ ولم يقل من سرق ، لأن بنيامين لم يسرق فى الحقيقة

﴿ **إنا إذاً لظالمون** ﴾ أى إذا أخذنا البرىء وتركنا من وجدنا متاعنا عنده .

وعندئذ فقدوا كل أمل فى استرجاع بنيامين .

﴿ **فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين** ﴾ :

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين ، الذى قد التزموا لأبيهم برده إليه ، ولما عاهدوه على ذلك ، فلما امتنع عليهم ذلك ﴿ **خلصوا** ﴾ أى انفردوا عن الناس ﴿ **نجياً** ﴾ يتناجون فيما بينهم .

﴿ **قال كبيرهم** ﴾ وهو روبيل ، وقيل يهوذا ، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما هموا بقتله ، قال لهم : ﴿ **ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله** ﴾ لتردونه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف منه .

﴿ **فلن أبرح الأرض** ﴾ : أى لن أفارق هذه البلدة ﴿ **حتى يأذن لى أبى** ﴾ فى الرجوع إليه راضياً عنى ، ﴿ **أو يحكم الله لى** ﴾ : قبل أن يمكننى من أخذ أخى ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ .

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عنده ، ويتنصلوا إليه ويبرأوا مما وقع بقولهم . وقوله : ﴿ **وما كنا للغيب حافظين** ﴾ .

قال قتادة وعكرمة : ما علمنا أن ابنك سرق .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا فى الغيب أنه سرق له شيئاً . إنما سألنا ما جزاء السارق ؟

﴿ **واسأل القرية التى كنا فيها** ﴾ قيل المراد مصر . ﴿ **والعير التى أقبلنا فيها** ﴾ أى التى رافقناها

عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق ، وأخذوه بسرقته .

﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم** ﴾ .

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل** ﴾

قال محمد بن اسحاق : لما جاءوا يعقوب أخبروه بما جرى ، اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف قال : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل** ﴾ .

وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه ، وصح له قوله ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل** ﴾ .

ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف ، وأخاه بنيامين ، وروبيل ، الذى أقام بديار مصر ، ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع اليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ، ولهذا قال ﴿ **عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم** ﴾ أى العليم بحالى ﴿ **الحكيم** ﴾ فى أفعاله وقضائه وقدره.

﴿ **وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف** ﴾ أى أعرض عن بنيه وقال فتذكروا حزن يوسف القديم الأول : ﴿ **يا أسفا على يوسف** ﴾ جدد له حزن الابنين ، الحزن الدفين .

﴿ **يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم** ﴾ : أى ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق ، قال قتادة وغيره ، وقال الضحاك : فهو كظيم كئيب حزين .

قال سعيد بن جبير : اختص الله تعالى هذه الأمة المحمدية بالاسترجاع عند المصيبة ، وهو يعنى بذلك قوله تعالى ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾[1] .

وعندما رأى أبناء يعقوب مانزل بأبيهم رقت له أفئدتهم ﴿ **قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين** ﴾ أى ما تزال تذكر يوسف وتحزن بفراقه حتى تشرف على الهلاك بسبب ما أنت فيه من الهم والغم والحزن والنصب والوصب ، أو تهلك فعلا .

قال لهم يعقوب بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** ﴾ أى أشكو مأأنا فيه من الهم والحزن إلى الله وحده ، فهو الملجأ والمصير ، وهو قوة كل ضعيف ، وعز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وملجأ كل ملهوف ، كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر .

قوله تعالى : ﴿ **وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ : ذلك لأنه كان يعلم أن رؤيا يوسف التى رأى فيها أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر فى حالة سجود له ، لابد من تحقيقها .

---

(١) الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة البقرة .

وقد ذكرت الرؤيا فى هذه السورة فى أربعة مواضع : رؤيا يوسف ، ورؤيا ساقى الملك ، ورؤيا خبازيه ، ورؤيا الملك وقد تحققت . وبقيت رؤيا يوسف ، وسوف تتحقق كما سنرى .

لكن الأنبياء لا يفقدون الأمل ، ولا ييأسون من رحمة الله مهما ادلهمت الخطوب ، واحتدمت الإحن ، فقد قال يعقوب لأبنائه ﴿ **يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ .

هو كقوله جل شأنه : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾[1] وكقوله تعالى ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[2] .

ياصاحب الهم إن الهم منفـــرج	أبشر بخيـر فـإن الفــارج الله
اليـأس يقطـع أحيانــا بصاحبـه	لا تيأســن فـإن الكافـى الله
الله يحـدث بعــد العســر ميسـرة	لا تجزعــن فـإن الصانـع الله
إذا بليـــت فثـــق بالله وارض بـــه	إن الـذى يكشــف البلـوى هـو الله
والله مالــك غيــر الله مــن أحــد	فحسبــك الله فــى كــلٍ لــك الله

تعرف إخوة يوسف عليه واعترافهم بالذنب وعفوه عنهم وما أمرهم به

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

﴿ **المفردات** ﴾ : ﴿ **مسنا** ﴾ : أصابنا . ﴿ **الضر** ﴾ : ألم الجوع . ﴿ **مزجاة** ﴾ : بضاعة ناقصة غير تامة لا تقبل إلا بدفع وعرض وعليه قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾[3] أى يسوق ويدفع . ﴿ **الخاطئين** ﴾ : الخاطئ من يتعمد الذنب والمخطئ من يخطئ القصد أى لا يعرف الصواب ثم يصير إلى غيره. ﴿ **لا تثريب** ﴾ : لا لوم ولا توبيخ .

(١) الآية ٥٦ من سورة الحجر . (٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر . (٣) الآية ٤٣ من سورة النور .

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام أنه ندب بنيه على الذهاب فى الأرض ، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين ، والتحسس يكون فى الخير ، والتجسس يكون فى الشر ، ونهضهم وبشرهم ، وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله .

ثم قال تعالى ﴿ **فلما دخلوا عليه** ﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ، ودخلوا على يوسف ﴿ **قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر** ﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام .

﴿ **وجئنا ببضاعة مزجاة** ﴾ ومعنا ثمن الطعام الذى نختاره وهو قليل ، وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشىء .

وقوله تعالى ﴿ **فأوف لنا الكيل** ﴾ أى أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك . وقال ابن جريج : وتصدق علينا برد أخينا إلينا .

وقال سعيد بن جبير والسدى : ﴿ **وتصدق علينا** ﴾ يقولون : تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة ، وتجوز فيها .

وسئل سفيان ابن عيينة : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبى ﷺ ؟ فقال : ألم تسمع قوله ﴿ **فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين** ﴾ .

عن عثمان بن الأسود : سمعت مجاهداً ، وسئل : هل يكره أن يقول الرجل فى دعائه : اللهم تصدق على ؟ قال : نعم ، إنما الصدقة لمن يبتغى الثواب .

قوله تعالى ﴿ **قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ٭ قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ٭ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾

قال المفسرون : إن يوسف عليه السلام لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب ، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه ، مع ماهو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وأخوته ، وبدره البكاء ، فتعرف إليهم فيقال : إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة .

وقال ﴿ **هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون** ﴾ : يعنى كيف فرقوا بينه وبين أخيه. ﴿ **إذ أنتم جاهلون** ﴾ أى إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذى أرتكبتموه ، كما قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل ، وقرأ ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾[1] .

(١) الآية ١١٩ من سورة النحل .

والظاهر – والله أعلم – أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له فى ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه فى المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له فى ذلك . والله أعلم .

ولكن لما ضاق الحال ، واشتد الأمر ، فرج الله تعالى من ذلك الضيق ، كما قال تعالى ﴿فإن مع العسر يسرا ﴾[1]

فعند ذلك قالوا ﴿ **أئنك لأنت يوسف** ﴾ : الاستفهام هنا يدل على الاستعظام ، أى أنهم تعجبوا من ذلك ، إنهم يترددون أكبر من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام ﴿ **أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى** ﴾ وقوله : ﴿ **قد منّ الله علينا** ﴾ أى بجمعه بيننا بعد الفرقة .

إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ :

يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم فى الخلق والخلق ، والسعة والملك والتصرف ، والنبوة أيضاً ، على قول من لم يجعلهم أنبياء ، وأقروا له بأنهم أساءوا وأخطأوا فى حقه : ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ :

يقول أى لا تأنيب عليكم ، ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد عليكم ذنبكم فى حقى بعد اليوم ، ثم زادهم الله لهم الدعاء بالمغفرة فقال ﴿ **يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ .

قال السدى : اعتذروا إلى يوسف فقال ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم** ﴾ يقول : لا أذكر لكم ذنبكم .

وقال ابن إسحق والثورى : ﴿ **لا تثريب عليكم** ﴾ أى لا تأنيب عليكم عندى فيما صنعتم .

﴿ **يغفر الله لكم** ﴾ : أى يستر الله عليكم فيما فعلتم ، وهو أرحم الراحمين . ﴿ **اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين** ﴾ :

يقول : أذهبوا بهذا القميص ﴿ **فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً** ﴾ وكان قد عمى من كثرة البكاء .

﴿ **وأتونى بأهلكم أجمعين** ﴾ : أى بجميع بنى يعقوب .

﴿ يعقوب وقد جاءه البشير ﴾

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

(١) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الانشراح .

﴿ **المفردات** ﴾ ﴿ **فصلت** ﴾ : انفصلت عن البلد وجاوزت حدودها .
﴿ **ريح** ﴾ : رائحة يوسف أو قميصه . ﴿ **تفندون** ﴾ : تنسبونى إلى الفند وهو ضعف العقل وفساد الرأى . ﴿ **ضلالك** ﴾ : خطئك .

قوله تعالى : ﴿ **ولما فصلت العير** ﴾ أى خرجت من مصر ﴿ **قال أبوهم** ﴾ أى يعقوب عليه السلام لمن بقى عنده من بنيه ﴿ **إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تُفَنِّدون** ﴾ تنسبونى إلى الفند والكبر .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وقتادة ، وسعيد بن جبير فى قوله ﴿ **لولا أن تفندون** ﴾ أى تسفهون .

قوله تعالى : ﴿ **قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم** ﴾ أى فى خطئك القديم ، ويعنون به حبه ليوسف .

قال قتادة : أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه . قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبى الله ﷺ .

قوله تعالى : ﴿ **فلما أن جاءه البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ :

المقصود بالبشير هنا أحد أبنائه وقد ألقى القميص على وجه أبيه ، فرد الله بصره عليه ، وهذا هو قميص الشفاء ، وقد سبقه قبل ذلك قميص الجفاء الذى قال عنه الله : ﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كذب** ﴾ وقميص الإبراء الذى قال عنه الله تعالى : ﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قُدّ من دُبُر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ أى ألم أقل لكم إن الله سيجمعنى به ، ويرده إلّى ، وألم أقل لكم إنى لأجد ريح يوسف ، قالوا له ﴿ **ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين** ﴾ . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴾

وتلك أخلاق الأنبياء ، فقد سبق أن قال لهم يوسف ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ وها هو ذا يعقوب يقول لهم ﴿ **سوف أستغفر لكم ربى** ﴾ .

ولقد مدح الله رسوله محمداً ﷺ بما منحه ، فقال ﴿وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[١] وكان خلقه القرآن ، قالوا وقد تمثل ذلك فى قوله جل شأنه ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾[٢]

قال الصادق المعصوم للأمين جبريل : أخبرنى عنها ياجبريل . قال : لا أدرى ، حتى أسأل رب

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم .
(٢) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .

العزة . ثم هبط عليه فقال : (أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك)[١] .

إنما قال يعقوب : سوف أستغفر لكم ربى ليرجئكم إلى وقت السحر ، حيث يقول تعالى ﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾[٢]

كان عمر رضى الله عنه يأتى المسجد فيسمع إنساناً يقول : اللهم دعوتنى فأجبت ، وأمرتنى فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لى . قال فاستمع الصوت ، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله ﴿ **سوف أستغفر لكم ربى** ﴾ وقد ورد الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة .

كما قال ابن جرير أيضاً عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ ﴿ **سوف أستغفر لكم ربى** ﴾ يقول : (حتى تأتى ليلة الجمعة ، وهو قول أخى يعقوب لبنيه) .

﴿ تأويل رؤيا يوسف ﴾

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

المفردات : ﴿ **العرش** ﴾ : كرسى تدبير الملك . ﴿ **خروا له سُجَّداً** ﴾ : ساجدين سجود إجلال وتعظيم لا سجود عبادة . ﴿ **نزغ** ﴾ : نخس والمراد وسوس وأفسد ما بينى وبين إخوتى . ﴿ **البدو** ﴾ : البادية . ﴿ **التأويل** ﴾ : التعبير . ﴿ **الأحاديث** ﴾ : الرؤى . ﴿ **فاطر** ﴾ : خالق . ﴿ **وليِّى** ﴾ : أى تولى أمرى . ﴿ **توفنى مسلماً** ﴾ : أى أمتنى على دين الإسلام .

قال العلامة ابن جرير : إن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهم ، ثم وصلوا باب البلد ، قال ﴿ **ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ١٤٨ ، ١٥٨) .
(٢) الآية ١٨ من سورة الذاريات .

قوله تعالى : ﴿ **ورفع أبويه على العرش** ﴾ قال ابن عباس : يعنى السرير ، أى أجلسهما معه على سريره .

قال العلامة ابن كثير : فى قوله تعالى : ﴿ **وخَرُّوا له سُجَّداً** ﴾ أى سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلا ﴿ **وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل** ﴾ أى التى كان قصها على أبيه من قبل ﴿ **إنى رأيت أحد عشر كوكباً** ﴾ الآية .

وقد كان هذا سائغاً فى شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرم هذا فى هذه الملة ، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى ، هذا مضمون قول قتادة وغيره .

وفى الحديث أن معاذا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال : (ما هذا يا معاذ ؟) . فقال : إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله . فقال : (لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها)[1] .

وفى حديث آخر : أن سلمان لقى النبى ﷺ : فى بعض طرق المدينة ، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام ، فسجد للنبى ﷺ فقال : (لا تسجد لى يا سلمان واسجد للحى الذى لا يموت) .

والغرض أن هذا كان جائزاً فى شريعتهم ، ولهذا خروا له سجداً .

فعندها قال يوسف ﴿ **يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً** ﴾ أى أن هذا ما آل إليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ، كما قال تعالى ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ﴾[2] أى أن يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر .

وقوله ﴿ **قد جعلها ربى حقاً** ﴾ أى صحيحة صدقاً يذكر نعم الله عليه .

﴿ **وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو** ﴾ أى البادية . قال ابن جريج وغيره . كانوا أهل بادية وماشية . ﴿ **من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء** ﴾

أى إذا أراد أمرا قيض له أسبابا . وقدره ويسره ﴿ **إنه هو العليم** ﴾ بمصالح عباده ﴿ **الحكيم** ﴾ فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره ، وما يختاره ويريده .

قوله تعالى ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليِّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين** ﴾ :

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه فى الدنيا أن يستمر بها

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٢٢٨) . (٢) الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

عليه فى الآخرة ، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه ، وأن يلحق بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره ، كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول (اللهم فى الرفيق الأعلى)(١) ثلاثاً .

﴿ من دلائل النبوة ﴾

ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

المفردات : ﴿ **أجمعوا أمرهم** ﴾ : اتفقوا على إلقائه فى الجب وعزموا عليه . ﴿ وكأين ﴾ : المراد بها كثير من الآيات . ﴿ **غاشية** ﴾ : عقوبة تغشاهم وتحيط بهم . ﴿ **بغتة** ﴾ : فجأة ، ﴿ **بصيرة** ﴾ : حجة واضحة ومعرفة تامة .

قوله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون * وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين * وما تسئلهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف ، وكيف رفعه الله عليهم ، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، مع ماأرادوابه من السوء والهلاك والإعدام ، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار العهود السابقة ﴿ **نوحيه إليك** ﴾ ونعلمك يا محمد ، لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك .

﴿ **وما كنت لديهم** ﴾ حاضراً عندهم ولا شاهداً لهم ﴿ **إذ أجمعوا أمرهم** ﴾ أى على إلقائه فى

(١) أخرجه البخارى فى المرضى (١٩) وفى الدعوات (٢٨) . ومسلم فى السلام (٤٦) . والترمذى فى الدعوات (٧٦) . وابن ماجه فى الجنائز (٦٤) . والإمام مالك فى الجنائز(٤٦ ، ٤٧) . والإمام أحمد فى (٦ : ٤٥ ، ٤٨ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ١٠٨) .

الجب ﴿ **وهم يمكرون** ﴾ به ، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك ، وإنزالا عليك كقوله ، ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ﴾[١] الآية .

وقال تعالى ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾[٢] الاية

وقال : ﴿ تلك من أبناء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[٣] .

وقال تعالى ﴿ وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾[٤] الآية .

وقال تعالى ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون* إن يوحى إلىّ إلا أنما أنا نذير مبين ﴾[٥]

يقول تعالى : إنه رسوله ، وإنه قد أطلعه على أنباء مما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم فى دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ولهذا قال ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾ .

وقال ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾[٦] كقوله ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾[٧] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ **وما تسألهم عليه من أجر** ﴾ أى ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، أى من جعالة ولا أجرة ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ، ونصحاً لخلقه .

﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ أى يتذكرون به ويهتدون ، وينجون به فى الدنيا والآخرة

وقوله تعالى ﴿ **وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

إذا سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له من خالقك ؟ لقال لك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد القهار .

سل الواحة الخضراء والماء جارياً ... وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الروض والندى ... سل الليل والإصباح والطير شادياً
وسل هذه الأنسام والأرض والسما ... وسل كل شىء تسمع الحمد سارياً

(١) الآية ٤٤ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٤٤ من سورة القصص .
(٣) الآية ٤٩ من سورة هود .
(٤) الآية ٤٥ من سورة القصص .
(٥) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة ص .
(٦) الآية ١١٦ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ٨ من سورة الشعراء .

فلو جـنّ هذا الليل وامتد سرمَدا — فمن غير ربى يرجع الصبح ثانياً
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم — سوى الله يجريـه كما شاء ثانيـاً
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت — أفى كونكم من يمسك الريح ناهياً

تباركت ربنا وتعاليت ، آمن بك المؤمن ولم ير ذاتك ، وجحدك الجاحد ووجوده فى ملكك دليل على وجودك .

إن الله تعالى يخبر فى قوله ﴿ **وكأين من آية فى السموات والأرض** ﴾ الخ الآية . عن غفلة أكثر الناس عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله فى السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم فى الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات فى الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الله الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام والبقاء والعمدية للأسماء والصفات وغير ذلك .

وقوله تعالى ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ .

قال ابن عباس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ؟ ومن خلق الأرض ؟ ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله وهم مشركون .

وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبى وقتادة والضحاك .

وفى الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم : (لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هولك ، تملكه وما ملك[1]) .

وفى صحيح مسلم أنهم إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله ﷺ (قد قد) أى حسب حسب لا تزيدوا على هذا .

وقال تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره ، كما فى الصحيحين عن ابن مسعود قلت يارسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال ﴿ أن تجعل لله ندا وهو خلقك ﴾[2] .

وقال الحسن البصرى فى قوله ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ قال : ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك ، يعنى قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو

---

(١) أخرجه مسلم فى الحج (٢٢) .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة : ٢ : ٣) وفى (سورة : ٢٥ : ٢) وفى الأدب (٢٠) وفى الديات (١) وفى الحدود (١٩) . ومسلم فى الإيمان (١٤١ ، ١٤٢) . وأبو داود فى الطلاق (٥٠) . والتفسير (سورة ٢٥ : ١ ، ٢) . والنسائى فى التحريم (٤) .

خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾[١] .

وثم شرك آخر خفى لا يشعر به غالباً فاعله كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبى النمور عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى فى عضده سيراً فقطعه — أو نزعه — ثم قال : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ .

وفى الحديث : (ومن حلف بغير الله فقد أشرك)[٢] رواه الترمذى وحسنة من رواية ابن عمر .

وفى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الرقى والتمائم والتولة شرك)[٣] وفى لفظ لهما (الطيرة شرك وما منا إلا متوكل ولكن الله يذهب بالتوكل)[٤] .

وروى أحمد عن زينب امرأة ابن مسعود قالت : « كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ، فقلت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقينى من الحمرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبى فرأى فى عنقى خيطاً فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت خيط رُقىَ لى فيه ، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) قال : قلت له لم تقول هذا وقد كانت عينى تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودى ير فيها فكان إذا رقاها سكنت ؟ فقال : إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال رسول الله ﷺ (أذهب البأس ، رب الناس ، اشف وأنت الشاف ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً »[٥] .

وفى حديث آخر رواه الإمام أحمد عن عيسى بن عبد الرحمن قال : « دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده فقيل له : لو تعلقت شيئاً ؟ فقال أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ (من تعلق شيئاً وكل إليه) » .

وفى المسند للإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ (من علق تميمة فقد أشرك) وفى رواية (من تعلق تميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له)[٦] .

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة النساء .

(٢) أخرجه الترمذى فى النذور (٩) . والنسائى فى الإيمان (٤) . وابن ماجه فى الكفارات (٢) . والدارمى فى النذور (٦) . والإمام أحمد فى (١ : ٤٧) وفى (٢ : ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢) .

(٣) أخرجه أبو داود فى الطب (٢٩) . وابن ماجه فى الطب (٣٩) .

(٤) أخرجه أبو داود فى الطب (٢٤) . والترمذى فى السير (٤٦) . وابن ماجه فى الطب (٤٣) . والإمام أحمد فى (: ٣٨٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ٢٥٩) وفى (٦: ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ٢٠٨ ، ٢٦١) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ١٥٤ ، ١٥٦) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه)[١] رواه مسلم .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) رواه الإمام أحمد .

وقال أحمد أيضاً عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ : قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال (الرياء ، يقول الله تعالى يوم القيامة إذاجازى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟)[٢]

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) قالوا يارسول الله ما كفارة ذلك ؟ قال (أن يقول أحدهم اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك)[٣] .

وقال الإمام أحمد عن أبي علي ــ رجل من بني كاهل ــ قال خطبنا أبو موسى الأشعري فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل . فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لتأتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون . قال : بل أخرج مما قلت . خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال (يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل) فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يارسول الله ؟ قال : (قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه)[٤] وقد روى من وجه آخر وفيه أن السائل في ذلك هو الصديقّ كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن معقل بن يسار قال : شهدت النبي ﷺ أو قال حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال : (الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل) فقال أبو بكر الصديق : وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهاً آخر ؟ فقال رسول الله ﷺ : (الشرك أخفى من دبيب النمل) ثم قال : (ألا أدلك على ما يذهب عنك صغيره ذلك وكبيره ؟ قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم) .

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ (الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا)

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن العاص سمعت أبا هريرة قال : قال أبو بكر الصديق : يارسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي قال « قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في (٥ : ٤٢٨ ، ٤٢٩) .
(٣) وأخرجه الإمام مالك في صفة النبي (٣٤) .
(٤) أخرجه الإمام في (٤ : ٤٠٣) .

وشركه)[1] وزاد الإمام أحمد (وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى سلم) .

قوله تعالى : ﴿ **أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون** ﴾

هو كقوله تعالى : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾[2] .

وقوله : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾[3] .

أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم ويشركون فى عبادته غيره ، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم ، أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم فى نار جهنم .

قوله تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ .

هذا خطاب كريم من رب كريم لنبى كريم ، قل يا محمد ، يا من أرسلت رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، قل لهم ﴿ **هذه سبيلى** ﴾ وسنتى ، وهذا منهجى ﴿ **أدعوا إلى الله** ﴾ وحده لا شريك له ﴿ **على بصيرة** ﴾ وبرهان ساطع وحجة قاطعة كذلك ﴿ من اتبعنى ﴾ يدعو على هذا المنهج وأمرت أن أسبح الله وأنزه ، فهو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، وسبحانه يحيى العظام وهى رميم ، ﴿ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾[4] .

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد

سبحانه ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾[5] .

من أغراض القصة

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات (٦٩) .
(٢) الآيات ٤٥ - ٤٧ من سورة النحل .
(٣) الآيات ٩٧ - ٩٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١٣ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

المفردات : ﴿ **استيأس** ﴾ : يئس ، ﴿ **بأسنا** ﴾ : عقابنا وعذابنا ، ﴿ **عبرة** ﴾ : العبرة والاعتبار نوع واحد وفيها معنى العبور من جهة إلى جهة .

أنبياء الله رجال أوحى الله إليهم بشرعه ، وكل عمل فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو قول لاإله إلا الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[١].

والنبوة وحى ، والرسالة تبليغ هذا الوحى ، فلا نبوة بلا وحى ، ولا رسالة بلا نبوة ، لذا فإن النبى ﷺ ، لما ختم النبيين فقد ختم المرسلين ، لأن النبوة أعم من الرسالة ، وختم الأعم يقتضى ختم الأخص ، فمن ادعى نبوة بعد رسول الله فقد كفر كذلك من زعم أنه رسول بعد رسول الله .

قال المفسرون فى هذه الآية ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ الآية .

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه السياق فى هذه الكلمة الكريمة ، أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع ، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل ، وأم موسى ، ومريم بنت عمران أم عيسى ، نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، وبقوله ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾[٢] الآية

وبأن الملك جاء إلى مريم يبشرها بعيسى عليه السلام وبقوله تعالى ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾[٣].

وهذا القدر حاصل لهن . ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه فى أن هذا هل يكفى فى الانتظام فى سلك النبوة بمجرده أم لا ؟ الذى عليه أهل السنة والجماعة وهو الذى نقله الشيخ أبو الحسن الأشعرى عنهم أنه

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٧ من سورة القصص .

(٣) الآية ٤٢ من سورة آل عمران .

ليس فى النساء نبية وإنما فيهن صديقات كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾[١] .

فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبية لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام فهى صديقة بنص القرآن .

وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا** ﴾ الآية : أى ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾[٢] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **من أهل القرى** ﴾ المراد بالقرى المدن ، لا أنهم من أهل البوادى الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً ، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً ، وألطف من أهل بواديهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادى ، ولهذا قال تعالى ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** ﴾[٥] .

قال قتادة : ﴿ **من أهل القرى** ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل البوادى .

وقال الإمام أحمد عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال الأعمش هو عمر عن النبى ﷺ أنه قال : (**المؤمن الذى يخالط** الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى يخالطهم ولا يصبر على أذاهم)[٦] .

وقوله : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض** ﴾ يعنى هؤلاء المكذبين لك يا محمد فى الأرض ﴿ **فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ أى من الأمم المكذبة للرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها .

كقوله : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾[٧] الآية

فإذا استمعوا ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته فى خلقه .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ **ولدار الآخرة خير للذين اتقوا** ﴾ أى وكما نجينا المؤمنين فى الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة وهى خير لهم من الدنيا بكثير ، كقوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[٨] .

---

(١) الآية ٧٥ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٣) الآية ٨ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٩ من سورة الأحقاف .
(٥) الآية ٩٧ من سورة التوبة .
(٦) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ٤٣) وفى (٥ : ٣٦٥) .
(٧) الآية ٤٦ من سورة الحج .
(٨) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة غافر .

قوله تعالى ﴿ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فَنُجِّىَ من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى : ﴿ **حتى إذا استيئس الرسل** ﴾ الآية . (هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا استيئس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك)[١] .

وعن عائشة « أن النبى ﷺ قرأ ﴿ **وظنوا أنهم قد كُذِبوا** ﴾ (مخففة) » أخرجه ابن مردويه عن طريق عكرمة ، ونحوه عن ابن عباس قال : يئس الرسل أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به جاءهم نصرنا .

﴿ **فنجى من نشاء** ﴾ أى فنجى الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم بحسب ما وضع الله من تأثير الأعمال فى طهارة النفوس وزكائها- هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم كما قال تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾[٢] .

﴿ **ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾ : أى ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وكذبوا رسله ، وما أتوهم به من عند ربهم .

وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم ، ويقيموا عليهم الحجة ،وينذروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن المهتدون ، ويصر المعاندون ، فينجى الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ، ويهلك المكذبين ، ولا يخفى ما فى الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ، ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبى ﷺ .

وهذه سنه الله تعالى فى الأمم إذا كذبت رسلها ، قال جل شأنه : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٧٦) ووفى التفسير (سورة ٣ : ٤) وفى (سورة ١٢ : ٦) وفى بدء الوحى (٦) وفى الأنبياء (١٩) . ومسلم فى الجهاد (٧٤) .

(٢) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

(٣) الآية ٧٠ من سورة التوبة .

وهذا ختام يرتبط بالسورة ارتباطاً قوياً ، فإن قصة يوسف كما سماها الله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾[١].

وقصص القرآن لا يساق عبثاً ، إنما لأغراض سامية وأهداف عليا ، فمن أغراضه العبرة والاعتبار ، فليس حديثاً يفترى ، كذلك هو تصديق لما سبق من الكتب المنزلة على الأنبياء ، وفيها تفصيل لكل شيء ، وفيها الهدى والرحمة للمتوسمين المعتبرين ، المؤمنين .

فالقصة فى القرآن مدرسة أساتذتها الأنبياء والمرسلون وهى منهج تربوى تربى على مائدته أهل التقى والفضل .

فطوبى للذين ينهلون من مناهل القرآن العذبة ، ويأخذون العبرة من قصته ومواعظه .

---

(١) الآية ٣ من سورة يوسف .

﴿ سورة الرعد ﴾

مقدمة:

السورة مكية وعدد آياتها ، ثلاث وأربعون .

قال صاحب البصائر : وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وستون ، وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف .

وتسمى سورة الرعد ، لقوله تعالى ﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴾ .

ومقصود السورة : بيان حجة التوحيد فى تخليق السموات والأرض ، واستخراج الأنهار والأشجار والثمار ، وتهديد الكفار ووعيدهم ، وذكر تخليق الأولاد فى أرحام الأمهات ، على تباين الدرجات ، ومن النقصان والزيادات ، فى الأيام والساعات ، وإطلاع الحق تعالى على بواطن الأسرار ، وضمائر الأخيار ، والأشرار .

وذكر السحاب ، والرعد ، والبرق ، والصواعق ، والأمطار .

والرد على عبادة الأصنام .

وقصة نزول القرآن من السماء ، والوفاء بالعهد ، ونقض الميثاق ودخول الملائكة بالتسليم على أهل الجنان ، وأنس أهل الإيمان ، بذكر الرحمة ، وبيان تأثير القرآن ، فى الآثار والأعيان ، وكون عاقبة أهل الإيمان إلى الجنان ، ومقر مرجع الكفار إلى النيران ، وتقرير نبوة المصطفى بنزول الكتاب وبيان القرآن فى قوله : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلا ﴾[1] إلى آخر السورة .

المتشابهات

قوله تعالى ﴿ كل يجرى لأجل مسمى ﴾ وفى لقمان ﴿ إلى أجل ﴾[2] لا ثانى له ، لأنك تقول فى الزمان : جرى ليوم كذا ، وإلى يوم كذا ، والأكثر اللام كما فى هذه السورة ، وسورة الملائكة . وكذلك فى يسٓ ﴿ تجرى لمستقر لها ﴾[3] لأنه بمنزلة التاريخ ، تقول : كتبت لثلاث بقين من الشهر ، وآتيك لخمس تبقى من الشهر .

وأما فى لقمان فوافق ما قبلها وهو قوله تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾[4] والقياس : لله كما فى قوله تعالى : أسلمت وجهى لله .

لكنه حمل على المعنى أى يقصد بطاعته إلى الله كذلك : يجرى إلى أجل مسمى ، أى يجرى إلى وقته المسمى له .

(١) الآية ٤٣ من سورة الرعد .
(٢) الآية ٢٩ من سورة لقمان .
(٣) الآية ٣٨ من سورة يس .
(٤) الآية ٢٢ من سورة لقمان .

وقوله تعالى ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ وبعدها ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ .

لأن بالتفكر فى الآيات يعقل ما جعلت الآيات دليلا له ، فهو الأول المؤدى إلى الثانى .

وقوله تعالى ﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ . ههنا موضعان .

وزعموا أنه لا ثالث لهما ، ليس هذا بتكرار محض ، لأن المراد بالأول آية مما اقترحوا ، نحو ما فى قوله تعال : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ﴾[1] الآيات ، وبالثانى آية ما ، لأنهم لم يهتدوا إلى أن القرآن آية فوق كل آية ، وأنكروا سائر آياته ، ﷺ .

قوله تعالى ﴿ **ولله يسجد من فى السموات والأرض** ﴾ وفى النحل ﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة ﴾[2] .

وفى الحج ﴿ أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم ﴾[3] .

لأن فى هذه السورة تقدم آية السجدة ذكر العلويات : من البرق والسحاب والصواعق ، ثم ذكر الملائكة وتسبيحهم وذكر آخرة الأصنام والكفار ، فبدأ فى آية السجدة بذكر من فى السموات لذلك ، وذكر الأرض تبعاً ولم يذكر من فيها ، استخفافاً بالكفار والأصنام .

وأما فى الحج فقد تقدم ذكر المؤمنين وسائر الأديان فقدم ذكر من فى السماوات تعظيماً لهم ولها وذكر من فى الأرض لأنهم هم الذين تقدم ذكرهم .

وأما فى النحل فقد تقدم ذكر ما خلق الله على العموم ، ولم يكن فيه ذكر الملائكة ولا الإنس تصريحاً ، فنصت الآية ما فى السموات وما فى الأرض فقال فى كل آية ما ناسبها .

قوله تعالى ﴿ **كذلك يضرب الله** ﴾ ليس بتكرار لأن التقدير : كذلك يضرب الله للحق والباطل الأمثال ، فلما اعترض بينهما (فأما) و(وأما) وطال الكلام أعاد فقال ﴿ **كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ .

قوله تعالى :

﴿ **لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به** ﴾ : **وفى المائدة** ﴿ **ليفتدوا به** ﴾[4] **لأن (لو) وجوابها يتصلان بالماضى ، فقال فى هذه السورة** : ﴿ **لافتدوا به** ﴾ وجوابه فى المائدة ﴿ ما تقبل منهم ﴾ وهو بلفظ الماضى وقوله : ﴿ **ليفتدوا به** ﴾ علة وليس بجواب .

قوله تعالى ﴿ **ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ فى موضعين ، هذا ليس بتكرار ، لأن الأول متصل

---

(١) الآية ٩٠ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٤٩ من سورة النحل .
(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .
(٤) الآية ٣٦ من سورة المائدة .

بقوله ﴿يصلون﴾ ، وعطف عليه ﴿ويخشون﴾ ، والثانى متصل بقوله : ﴿ **يقطعون**﴾ وعطف عليه ﴿ يفسدون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك** ﴾ ومثله فى سورة المؤمن[1] ليس بتكرار .

قال ابن عباس : عيروا رسول الله ﷺ باشتغاله بالنكاح والتكثر منه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ . فكان المراد منه : لست ببدع من الرسل ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** ﴾ .

مناسبتها لما قبلها

إن الله سبحانه وتعالى أجمل ما فى السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية فى قوله : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾[2] .

ثم فصلها هنا أتم تفصيل فى مواضع منها :

(١) أنه أشار فى سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله تعالى ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾[3] ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر فى سالفتها .

(٢) أنه ذكر فى كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم وأنهم لاقوا منهم ما لاقوا ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وكتب الخزى على الكافرين ، والنصر لرسله والمؤمنين ، وفى ذلك تسلية لرسوله ﷺ ، وتثبيت لقلبه .

(٣) جاء فى آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله : ﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[4] وفى أول هذه وهو قوله تعالى ﴿ **تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ

(١) الآية ٧٨ من سورة المؤمن ، أو غافر .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة يوسف .
(٣) الآية ٣٩ من سورة يوسف .
(٤) الآية ١١١ من سورة يوسف .

فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

المفردات : ﴿ **المر** ﴾ : تقرأ هكذا (ألف لام ميم را) وفيها ما فى أخواتها . ﴿ **عمد** ﴾ : جمع عماد أو عمود وقرئ عُمُد بالضم . ﴿ **مدّ الأرض** ﴾ : بسطها . ﴿ **رواسى** ﴾ : جمع راسية والمراد الجبال لأن الأرض ترسو بها أى تثبت . ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ : التغشية الباس الشيء والغشاء الغطاء . ﴿ **صنوان** ﴾ : جمع صنو وهى النخلات أو النخلتان يجمعهن أصل واحد ، وتتشعب منه رؤوس فتصير نخيلا ، وقيل الصنو المثل ، وعليه قوله ﷺ : (عم الرجل صنو أبيه)[1] والمراد نخيل متماثلات وغير متماثلات .

المر.اعلم أن كل صورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن ، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ، ولا مرية ، ولا ريب .

واعلم بأن هذه الحروف تشير إشارة قوية إلى إعجاز هذا الكتاب المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وقد تحدى الله تعالى فصحاء العرب وأساطين البلاغة ،وأرباب البيان ، أن يأتوا بمثل هذا الكتاب المنزل بتلك الحروف ، فعجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولما أصيبوا بالإفلاس المخزى قالوا : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلّا أساطير الأولين ﴾[2] .

فقال لهم مولانا تبارك اسمه ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[3]

ثم أخبرهم بعجزهم فقال ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[4] .

وجاء قوله جل شأنه بعد تلك الحروف تقطع ألسنة المعاندين فيقول ﴿ **تلك آيات الكتاب والذى أنزل من ربك الحق** ﴾ .

والحق هو الأمر الثابت الذى لا يختلف ولا يتخلف ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير

---

(١) أخرجه مسلم فى الزكاة (١١) . والترمذى فى المناقب (٢٨) .
(٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٢٣ من سورة البقرة .
(٤) الآية ٢٤ من سورة البقرة .

الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[١] ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ : وهذا مما تسيل له النفس مرارة ، فالحق واضح ، والمنادى صائح ، والطريق لائح ، لكن القلوب التى جبلت وتمرست بالباطل ، لو جاءتهم كل آية فإن دأبها العناد والجدال بالباطل ، قال تعالى : ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾[٢] وقال جل شأنه : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سُكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[٣].

ومما يدعو إلى الأسى أن الأكثرية شكذا ، قال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[٤] وقال ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾[٥] .

قوله تعالى ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾

إن الذى أنزل هذا الكتاب المعجز هو الله ، الذى رفع السموات بغير عمد ، فإعجازه فى آياته المتلوة ، فإعجازه فى آياته المشاهدة ، لا يقدر على ذلك غيره ، فالسموات أمامكم تشاهدونها ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور * الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾[٦] .

هل يقدر على ذلك غير الله ؟ إن الأثر يدل على المؤثر ، وإن النظام يدل على إله عليم مريد قدير ، منزه عن العبث ، متصف بالحكمة والمشيئة ، ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾[٧] .

من الذى خلق هذا ؟ الصدفة العمياء ؟ أم الطبيعة الصماء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾[٨] .

قوله تعالى ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ ، نؤمن بذلك إيماناً جازماً ، لا يحتمل شكاً ولا ريباً ، ونؤمن باستوائه تعالى على عرشه بلا تعطيل ، ولا تمثيل ، ولا كيف ، فإنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم مالا يكون ، لو كان كيف كان يكون ، فلا العرش يحمله ، ولا الكرسى يسنده ، بل العرش وحملته ، والكرسى وعظمته ، الكل محمول بعظمة إرادته ، وقهر مشيئته .

(١) الآية ٨٢ من سورة النساء .
(٢) الآية ٥٧ من سورة الكهف .
(٣) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٤) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .
(٥) الآية ١١٦ من سورة الأنعام .
(٦) الآيات ١ - ٤ من سورة الملك .
(٧) الآية ١٠ من سورة لقمان .
(٨) الآية ١١ من سورة لقمان .

قوله تعالى ﴿ **وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى** ﴾ :

فهما من خلق الله ، وكل منهما مسخر بعلمه وإرادته وقدرته ، لا يخرج عما أراده الله له ، قال تعالى ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[(١)] .

ولكى نعرف شيئاً من عظمة الخالق فى هذا الكون الفسيح الأرجاء ، نذكر هنا ما سجلته الحقائق عن هذا الكون .

قال صاحب كتاب : (العلم فى خدمة الدين) محمد عاطف البرقوق . قال :

« ولكى نبين لحضراتكم اتساع الكون أقول : إن البعد بين الأرض والشمس يبلغ (٩٢,٨٧٠,٠٠٠) ميل وهى مسافة كبيرة كما ترون ، ولكن هذا البعد الكبير ليس إلا جزءاً صغيراً من أبعاد تفوقه كثيراً بين الأرض والنجوم البعيدة .

ولكى أصور لحضراتكم عظمة هذه الأبعاد ، ألجأ إلى طريقة أخرى هى طريقة سرعة الضوء .

كثيراً ما نلجأ إلى تصوير المسافات البعيدة بالسرعة فنقول مثلاً : إن المسافة بين القاهرة والاسكندرية تبلغ ثلاث ساعات ، بالقطار السريع ، وأن المسافة بين المنزل والمحطة تبلغ ساعة بالسيارة مثلا .

والسرعة التى سنتخذها فى وحدة تقدير أبعاد الفضاء ليست بالسيارة ولا القاطرة ولا الطيارة النفاثة والصواريخ ، بل هى سرعة الضوء ، وهى أكبر سرعة معروفة فى العالم .

وسرعة الضوء هى أيضاً سرعة اللاسلكى ، ولكى أوضح لحضراتكم عظم هذه السرعة ، أوجه النظر بمقارنتها بسرعة قطار سريع يقطع فى الساعة ٦٠ ميلا ، أى بسرعة ميل واحد فى واحد فى الدقيقة ، أو جزء من ستين جزءاً من الميل فى الثانية .

أما الضوء فلا يقطع كسراً من الميل فى الثانية ، بل يقطع ١٨٦,٠٠٠ ميل فى الثانية ، أى ما يعادل ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الثانية ، وهى سرعة عظيمة بلا شك .

وهناك حقيقة أخرى تبين عظمة هذه السرعة ، وهى أن المسافة بين الشمس والأرض وهى نحو ٩٢ مليون ميل كما ذكرنا ، وأشعة الشمس تصل إلى الأرض بسرعة الضوء العظيمة ، فتقطع المسافة بينها فى ٨ دقائق و $\frac{١}{٩}$ ثانية . .

ولو حاول الإنسان أن يقطع هذه المسافة بطائرة نفاثة سرعتها ٦٠٠ ميل فى الساعة لاستغرق

---

(١) الآية ١٢ من سورة النحل .

قطعها : لا ٨ دقائق ولا ٨ ساعات ولا ٨ سنوات ، بل استغرق ذلك نحو ١٧ سنة و٦ أشهر ، ذلك بشرط أن تستمر سرعتها هذه دون توقف ليل نهار ، وأين هى الطائرة التى تسير سنوات دون توقف ، حتى للتزود بالوقود .

فما أعظم سرعة الضوء ، وما أبلغ تلك السرعة الضوئية الكونية التى تدل على قدرة الله عز وجل .

والشمس قريبة إلى الأرض بالنسبة إلى النجوم الأخرى ، فإن كانت أشعة الضوء تصل إلى الأرض من الشمس فى نحو ٨ دقائق ، فقد أثبت العلم أن هناك نجوماً تبعد عنا بملايين السنين .

وقد اتخذ العلماء السنة الضوئية وحدة تقدير المسافات الكونية ، تلك المسافات الكبيرة بين النجوم ، ولتتصوروا عظمة هذا الكون ، أقول : إن رحلة حول الأرض يقوم بها الإنسان تستغرق أياماً أو ساعات أو أشهراً ، ولكن اللاسلكى يقطعها فى أقل من ٧/١ ثانية ، وأقرب نجم إلينا بعد الشمس يصل ضوؤه فى ٤ سنوات و٤ أشهر ، وبعض النجوم البعيدة يصل إلينا ضوؤها فى (١٥,٠٠٠) سنة ، ويعتقد العلماء أن هناك نجوماً يصل إلينا ضوؤها فى ألف مليون سنة ضوئية .

وقد أثبت العلم أن النجوم وكل ما فى الوجود يسبح فى الفضاء كأسراب الحمام ، أو الطير التى تطير بسرعة فى الهواء ، ولكن النجوم تطير فى الفضاء بسرعة كونية هائلة وفيها مايدور من أقمار حول الأرض ، ومن أقمار وكواكب حول الشمس ، وهناك ملايين من المجاميع أو المجرات ، وفيها ما فيها ، وكلها تسبح فى الفضاء فى نظام وتنسيق من صنع الله ، وإبداع الخالق العظيم ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[1] .

والمتأمل فى هذا الكون العظيم كتأمل العلماء والحكماء ، لا يملك إلا أن يسجد لله خشوعاً وتبجيلا وتقديراً لعظمته وجلاله ، ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[2] ﴿ وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ﴾[3] .

قوة جبارة

إذا نظرها إلى انتصارات العلم الحديث ، فكيف نجده بالنسبة إلى عظمة الكون ؟ وكيف نجد قوة العلم التى ضاعفت قوى الإنسان ملايين المرات ؟ وكيف نجدها بالقياس إلى تلك القوة الجبارة التى صنعت هذا الكون العظيم ؟

فى ناحية السرعة مثلا : يستطيع الإنسان أن يسير بسرعة خمسة أميال فى الساعة ، وبالعلوم والمخترعات ازدادت سرعته إلى مائة كيلو متر فى الساعة بالسيارة ، وإلى ألف كيلو متر بالطائرة النفاثة ، ووصل الى ١٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الساعة بالصواريخ التى تنطلق بالأقمار الصناعية ، فأين هذه السرعة التى وصل إليها الإنسان من سرعة الضوء ، أو السرعة الكونية التى تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الثانية لا

(١) الآية ٤٠ من سورة يس . (٢) الآية ٢٨ من سورة فاطر . (٣) الآية ٨٥ من سورة الزخرف .

فى الساعة ، أي ١٠٨ ألف مليون كيلو متر فى الساعة ؟ إن هذه السرعة تكاد تكون خيالية وفوق تصور البشر ، ولا يمكن للعلم مهما سما تطوره أن يصل إلى جزء ضئيل منها ، فأين ١٠٠٠ كيلو متر فى الساعة من ١٠٨ ألف مليون كيلو متر فى الساعة ؟

وإلى أى مدى وصل العلم فى درجات الحرارة ؟

وكلنا يعلم أن العلم الحديث يعمل على الوصول إلى درجات حرارة مرتفعة فى الأغراض العلمية والصناعية ، وكان كشف الإنسان للنار ووسيلة إشعالها بداية عصر جديد ، ثم كان استخدامه للحطب ، ثم الفحم ، ثم البترول ، ثم الكهرباء ، ثم الذرة ، فإلى أى درجة فى الحرارة وصل ؟ وصل إلى ٥٦٠٠٠ مئوية قل عشرة آلاف من درجات الحرارة ، فأين هذه من درجة حرارة باطن الأرض التى تتحول المعادن من فعلها إلى غازات .

وأين هى من درجة حرارة الشمس التى تصل إلى آلاف الملايين من الدرجات ؟

وكذلك فى الإضاءة ، لقد استخدم الإنسان زيت البترول والكهرباء والفلورسنت ، فإلى أى قوة فى الإضاءة وصل ؟ إن أقوى مصباح وصل إلى ٦٠٠٠ شمعة ، ويدعى الإنسان أن فى استطاعته بإضاءاته أن يحول الليل إلى نهار فى جزء من الأرض ، فى بيته فى قصره فى ميدانه ، ولكن أى قوة جبارة أودعت الشمس إضاءتها التى تضىء العالم بأسره منذ ملايين السنوات ، وإلى ملايين من السنين مقبلة .

إن أقوى مصباح من صنع الإنسان يتضاءل أمام قوة إضاءة الشمس فى النهار والشمس مع هذا بعيدة عنا ملايين الأميال حقاً ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

غير المنظور

إن موجات اللاسلكى لا نراها تنتشر فى كل مكان ، ولكننا نستطيع إدراكها بأجهزة الراديو ، إن الأشعة السينية لا نراها ولكن نلمس آثارها بالتصوير وغير ذلك .

إن العلماء لم يروا الذرة إطلاقاً ، ولكنهم آمنوا بها واستخدموها فى القنبلة الذرية فى الاستفادة منها فى ميادين الصناعة والسلام .

إن الأشعة الكونية تملأ أركان الكون ، ولا تستطيع رؤيتها أو سماعها أى أننا آمنا بهذه جميعاً دون رؤيتها أو سماعها ، فهلا آمنا بالله الذى نلمس قدرته الجبارة ، وآثاره الخارقة ، وإبداعه الفريد ، وكونه الفسيح ، فهو الذى يحيى ويميت ، وإذا مرضت فهو يشفين ، وهو الذى ينصر المؤمنين ، ويخذل الكافرين ، ويحق الحق ، ويخذل الباطل ، أليست هذه جميعاً مشاهدات واقعية نلمسها بحواسنا ، تثبت وجود الخالق الذى لا إله إلا هو الحى الدائم) ا .هـ .

تبارك ربنا حيث يقول : ﴿ **كل يجرى لأجل مسمى** ﴾ فما من شىء فى هذا الكون إلا وله أجله

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

الذى تنتهى إليه ، وسبحان من سخر كل شىء لحكمته وقدرته وإرادته ﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان ﴾[١] .

سبحانه ، يدبر الأمر ، ويفعل ما يريد ، يدبر أحكامه ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٢] .

يفصل الآيات كما فى قوله جل شأنه ﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾[٣] سواء كانت آياته متلوة ، أم فى الأنفس والآفاق ، فالكل ينطق بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلن عن شكره ، ولا يغفل عن ذكره ، سموات ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

كل هذا لتعلموا : أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ﴿ **لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾ فالذى قدر على إبداع هذا الكون قادر بالأولى أن يبعثكم أحياء : ﴿ يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً ﴾[٤].

فاعلموا أنكم بين يدى الله غداً موقوفون ، وعن أعمالكم محاسبون ، وعلى رب العزة ستعرضون ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[٥]

قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ :

مد الأرض : أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ، لتثبت عليها الأقدام ، ويتقلب عليها الحيوان ، وينتفع الناس بخيراتها : زرعها وضرعها ، وبما فى باطنها من معادن جامدة وسائلة ، ويسيرون فى أكنافها يبتغون من رزق ربهم فيها .

ولا شك أن الأرض لِعظم سطحها هى فى رأى العين كذلك ، وهذا لا يمنع كرويتها التى قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك ، ولم يبق لديهم فيها ريب .

﴿ **وجعل فيها رواسى** ﴾ : أى وأرساها بجبال راسيات شامخات ، لا تنتقل ولا تتحرك ، حتى لا تميد وتضطرب .

﴿ **وأنهاراً** ﴾ : أى وجعل فيها أنهاراً جارية لمنافع الإنسان .

والحيوان ، فيسقى الإنسان ما جعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال ، ويجعلها لنفسه طعاماً

---

(١) الآيات ١ - ٦ من سورة الرحمن.
(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٣) الآية ١٢ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ١٨ من سورة النبأ .
(٥) الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .

وفاكهة ، ويكون منها مادة حياته فى طعامه وشرابه وغذائه .

﴿ **ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين** ﴾ : أى وجعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ، ذكرا وأنثى . حين تكونها ، فقد أثبت العلم حديثاً أن الشجر والزرع لا يولدان الثمر والحب إلا من اثنين ذكر وأنثى ، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث فى شجرة واحدة ، كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو التذكير فى شجرة وعضو التأنيث فى شجرة أخرى كالنخل ، وماكان العضوان فيه فى شجرة واحدة إما أن يكونا معاً فى زهرة واحدة كالقطن ، وإما أن يكون كل منهما فى زهرة كالقرع مثلاً .

﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ : أى يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلماً بعد أن كان مضيئاً ، فكأنه وضع عليه لباساً من الظلمة ، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار فيصير الجو مضيئاً ، وكل هذا لتتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار ، أو بالبحث على المعايش والأرزاق ، كما قال : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾[1] وقال ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾[2] .

وبعد أن ذكر هذه الأدلة التى تشاهد رأى العين فى كل صباح ومساء ، وفى كل حين ووقت ، ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها ، ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به ، وعقل يهتدى به إلى وجهة الصواب .

وينتقل من النظر فى الأسباب إلى مسبباتها فقال ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ : أى أن فيما ذكر من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التى خلق بها هذه الأشياء العظيمة ، لدلائل وحججاً لمن يتفكر فيها ويعتبر ، فيعلم أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد ، وهو ذو الإرادة المطلقة ، والقدرة الشاملة ، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلق ، ولا إعادة من فنى منهم ، ولا ابتداع ما شاع إبتداعه .

ومن ثم لا تجوز العبادة إلا له ، ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه ، ولا ينبغى أن تكون لصنم أو وثن أو حجر أو شجر ، أو ملك أو جن أو غير أولئك ممن سُلب النفع والضر ، بل لا يستطيع صرف الأذى عن نفيه ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ﴾[3] قوله تعالى ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

تقول الحقائق العلمية

من آيات الله فى عالم النبات :

النبات من آيات الله التى تسبح بحمده وقدرته ، وتشهد بأنه وسع كل شىء علما .

(١) الآية ٨٦ من سورة النمل . (٢) الآية ٢٣ من سورة الروم . (٣) الآية ٧٣ من سورة الحج .

فإذا تأملنا هذا الكائن الحى الذى يبدو ساكناً قابعاً فى مكانه ، وتناولناه بالدراسة والبحث ، نجد أنه يقوم بكافة العمليات التى تتطلبها الحياة من تغذية وهضم وإفراز وإكتناز وتناسل ودفاع وتضحية ومكافحة لبقاء الأصلح .

وسنقتصر فى هذا البحث على قليل من الظواهر العجيبة المعجزة ، التى أودعها الله فى عالم النبات ، وإشارات القرآن لها .

فالمعروف مثلا عن النبات الراق أن جذوره تمتص الماء المذاب فى المواد المعدنية الغذائية التى فى الأرض ، ثم تصعد محاليلها فى أوعية خاصة ، فيفيد منها النبات فى التغذية ، وبناء جسمه .

ويستفاد من البحوث العلمية أن النباتات وإن كانت متجاورة فى أرض واحدة ، وتسقى بماء واحد ، فإن بعضها يختلف فى الانتقال بهذه المحاليل الأرضية عن البعض الآخر ، ذلك بأن كل نوع من النبات يتحكم فى امتصاص أصناف خاصة يختارها من تلك المحاليل المفروض أن تمتصها الجذور ، وبذلك يشذ عن القانون المعروف (بقانون الانتشار الغشائى) فهى إنما تسمح بامتصاص محاليل تحتوى على الأملاح المعينة الصالحة لعملية (التحويل الغذائى) ، وتمتصها بقدر معلوم ، وتمتنع عن امتصاص محاليل أخرى ، ولو أنها قابلة للانتشار ، لأنها لا يستفاد منها ، أو أنها تلحق بالنبات أذى .

فالمعروف أن الحاصلات الزراعية النجيلية (كالقمح والشعير والذرة) تمتص من محاليل الجير والبوتاس والأزوت أقل من نصف ما تمتصه الحاصلات الجذرية (كالبطاطس واللفت والبنجر) ولكنها تتفوق عليها فى امتصاص السليس .

ومن هنا نشأ نظام الدورة الزراعية ، وتعاقب الحاصلات الذى يتبعه المزارعون الآن ، فلا يزرع فى البقعة الواحدة من الأرض محصولان متعاقبان ، يحتاج كل منهما إلى نفس العناصر الغذائية المستمدة من الأرض .

فالمشاهد أن الذرة التى تعقب البرسيم تكون أوفر محصولا من التى تعقب القمح ،ومن ثم عرفت أيضاً ضرورة التسميد ، فيضاف السماد الذى يحتوى عناصر معينة إلى الحاصلات المزروعة فى أرض فقيرة فى تلك العناصر ، أو استنفذها محصول سابق .

ويمكن مشاهدة قدرة الجذور على انتخاب المحاليل الغذائية الملائمة لها ، بأن تزرع بذرة من نبات الطماطم ، وأخرى بجوارها من نبات الداتورة ، وكلاهما ينتمى لعائلة واحدة (هى الباذنجانية) فتخرج الأولى ثمراً يؤكل مريئا ، وتنتج الأخرى نباتا يحتوى مادة سامة مخدرة .

كذلك الحال إذا زرعت بذرة البطيخ بجوار بذرة الحنظل (وكلاهما من العائلة القرعية) .

وتعزى قدرة الجذور على الانتخاب والتحكم فى امتصاص المحاليل الصالحة ، إلى قوة حيوية تتمتع بها خلايا خاصة من أنسجة الجذور ، ولا تخضع (لقانون الانتشار الغشائى) .

ولم يكتشف العلم للآن تفسيراً لهذه القوة الحيوية الإرادية المعروفة فى عالم النبات باصطلاح (الامتصاص الانتخابى فى جذور النباتات) مع وجودها فى قطع متجاورة من الأرض ، وتسقى بماء واحد ، ومازالت هذه الخاصة سراً وآية من آيات الله التى أودعها فى النبات ، عبرة وموعظة لقوم يعقلون ، كما أشار إليها القرآن فى قوله ﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾

وحبذا لو اتعظ الإنسان ، واقتدى بالنبات فأكل من الطعام ما يفيده ، وتجنب ما يضره ، كتعاطى المخدرات والخمر ، ولم يسرف فى الأكل كلما رأى الطعام سائغاً وفيراً ، فيملأ منه بطنه ، وتصيبه التخمة ، وعسر الهضم ، وغير ذلك من الأمراض .

الله قدر فهدى :

يتضح مما سبق من الكلام عن تحكم خلايا أنسجة خاصة فى الجذور ، واختيار المحاليل الغذائية ، أن الخلية فيها حياة ، ولها إرادة .

والخلية هى الوحدة التى يبنى منها جسم النبات ، وكذا الحيوان مثلها ، كمثل اللبنة تشاد بها المبانى الشامخة .

وتتكون الخلية (نباتية كانت أو حيوانية) من بعض العناصر التى يتركب منها الطين متحدة بالماء ، الذى جعل الله منه كل شيء حى ، بنسب ومعايير قدرها الخلاق العظيم ، ثم أودع فيها الحياة كما ورد فى الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة ﴾[١] الآية .

ومن المعجز فى خلق هذه الخلية أن حجمها غاية فى الصغر ، فلا تراها العين المجردة دون الاستعانة بالمجهر (الميكروسكوب) الذى يكبر صورتها مئات بل ألوف المرات ، فتظهر فى شكل كتلة من مادة هلامية يحتويها فى الغالب جدار رقيق ، ويستقر فى هذه المادة الهلامية كتلة دقيقة داكنة تعرف (بالنواة) ويعزى إليها السيطرة والإشراف على أداء الوظائف الحيوية التى تقوم بها الخلية .

فالله تعالى خلق هذه الخلية وسواها ، وقدر تركيبها ، ثم بث فيها الروح وبعد ذلك هداها إلى القيام بأداء وظائفها حسبما تقتضيه ظروف معيشتها .

كما قال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى ﴾[٢] .

وحين سأل فرعون موسى وأخاه هارون عن ربهما قائلا ﴿ من ربكما يا موسى ﴾ أنزل الله على موسى أن يجيب ﴿ ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[٣] فكان جواباً سديداً أفحم الذى كفر ، وكان فيه هدى للناس وآيات لأولى الألباب .

(١) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة المؤمنون . (٢) الآيات ١ – ٣ من سورة الأعلى . (٣) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة طه .

بل شاء الله أن يخلق بقدرته أنواعاً من الحيوان والنبات ، لا يتكون الواحد منها إلا من خلية واحدة وحسب ، ومع ذلك فهى تقوم بأعباء الحياة كافة ، بعد أن أعطاها خلقها ، ثم هداها لأداء عملها .

ومن أمثلة الحيوانات وحيدة الخلية ، الحيوان المنوى الذى سبق ذكره فيما تقدم ، وفى عالم النبات كذلك طوائف من النباتات وحيدة الخلية كالميكروبات ، وبعض أنواع الفطر والطحالب .

وفى النبات غير ما ذكر كثير من المثل العليا جديرة بالتفكير والتقدير والموعظة ، كالأمانة فى العمل ، والنظام الاشتراكى السليم ، والعمل لصالح المجتمع فى غير ما تواكل ولا تنصل من المسئولية ، ولا أنانية ولا إقطاع ، وكالدفاع والتضحية بل والاستشهاد فى سبيل الواجب .

وحسبنا إظهار الطرف من هذه الحقائق القيمة والمثل العليا أن نتمعن فيما تقوم به آلاف الملايين من الخلايا التى يبنى بها جسم الفرد من النبات ، فنرى أن لكل وظيفة من وظائف أعضاء ذلك النبات نسيجاً خاصاً ، يتألف من طائفة من الخلايا ذات الشكل ، وخواص معينة ، تتلاءم وأداء تلك الوظيفة المنوطة بها ، ولا تتوقف أية خلية عن عملها مدة حياة النبات ، بل تظل دائبة على أدائه دون ملل أو إحالة عملها على جارتها لتهرب من المسئولية ، او (ادعاء المرض طلباً للراحة وابتغاء الإجازة) .

وهى تكرس حياتها لأداء الواجب فى سبيل الصالح العام للنبات ، حتى لا يتعرض للسقم أو الموت .

وللخلايا ظاهرة عجيبة فى التطوع للدفاع عن النبات الذى يحتويها ، فإذا أصيب الساق بجرح مثلا تطوعت مجموعة من الخلايا الواقعة على حافة الجرح فتتكاثر بنشاط ، ثم ترسب مادة واقية على جدرانها (كالفلين) ، حتى تسد فجوة الجرح (كما يفعل الطبيب الجراح عندما يحشو جوف الجرح بالضمادة (الفتيل) ، وبذا يسلم النبات المجروح من التلوث والأذى .

ولبعض النباتات وسائل مختلفة للوقاية ، والدفاع المستديم عن جسمها : كوجود الأشواك مثلا التى تتكون أحياناً بتحور بعض الأوراق أو الفروع وغيرها ، وحيث يضحى النبات بالوظيفة الأصلية المخصصة لها هذه الأعضاء ، فتستحيل إلى أشواك فى سبيل السلامة والأمن العام .

ومن النباتات ما يفرز مواد لزجة على أوراقها ، أو أغصانها ، تعرقل سعى الحشرات التى تدب عليها ، ومنها ما يكون فى ثمارها أو عصارتها مواد سامة تصيب الحيوانات فترعوى ولا تعود إلى التطفل عليها .

كذلك ينبعث من الأوراق أو الأزهار فى بعض النباتات زيوت طيارة لها رائحة تنفر الحشرات ، أو تقتلها ، ومن أمثلة ذلك نبات (البيرفودم) الذى يدخل فى تحضير كثير من المبيدات الحشرية .

وتتجلى ظاهرة الاشتراكية والديمقراطية وإنكار الذات وعدم الإقطاع ، فى أن الخلية التى تبدأ فيها

عملية تحضير المواد الغذائية ، التى يكون فيها النبات ، لا تأخذ هذه الخلية من تلك المواد إلا ما هو مقرر لنصيبها ثم تسمح بمرور الباقى للخلية المجاورة فتحذو حذوها ، وما زاد من الغذاء بعد ذلك يرحل إلى مواضع الاكتناز ، فتخزنه الأنسجة المخصصة لذلك دون اختلاس أو اغتصاب ، حتى إذا جاء وقت الحاجة لهذا الغذاء قامت خلايا خاصة بإفراز مواد تحلله وتجعله سائغاً للمرور والتغذية ، فيوزع بمعدل يضمن التموين بالقسط لكافة أجزاء النبات .

أما التضحية فى النبات فتتضح فى ظاهرة تساقط أوراقه فى الشتاء ، حيث يقل أو يتوقف صعود العصارة فى الساق ، وكذا عند اشتداد حرارة الجو .

والمعروف فى علم النبات أن الورقة مصدر إمداد النبات بالغذاء العضوى من الجو ، كما تقوم أيضاً بعمليات التنفس والنتح والحكمة فى تساقط الأوراق تقليل النتح مراعاة للتقشف والاقتصاد فى كمية العصارة المحدودة شتاء ، وكذا عدم الإسراف فى تبخير الماء عند إرتفاع درجة الحرارة .

ففى كلا الحالين يضحى النبات ببعض أو كل أوراقه ، رغم الحاجة الماسة إلى الوظائف التى تؤديها ، وذلك حفظاً للمحاليل المائية التى فى جسم النبات ، وإذا حان وقت تساقط الأوراق أخذت الخلايا التى تحيط بعنق الورقة عند اتصالها بالفرع فى تكوين نطاق من الفلين ، يعزلها ويحول دون وصول العصارة إليها فتختنق تدريجياً ثم تذبل ، وتنفصل عن النبات ، وتسقط مضحية بنفسها فى سبيل توفير العصارة للنبات الذى كان يحملها .

ولا تتوقف تضحية الورقة عند هذا الحد بل بعد أن تموت شهيدة الواجب يدركها التعفن والانحلال ، ويتخلف عن رفاتها مادة عضوية سماوية تختلط بالمحاليل الغذائية التى فى التربة ، وتسهم فى تغذية النبات الذى سقطت شهيدة تحته وهكذا أفاد النبات من تلك الورقة فى حياتها وبعد موتها ، وفى ذلك أسمى مثل للتعاون والتضحية .

وبعد : أفلا يجدر بالإنسان وقد ميزه الله بالعقل ، وفضله على سائر مخلوقاته ، أن يتدبر هذه الآيات البالغة التى يراها فى النبات ، فيتعظ بها ، ويتخذ من هذا الكائن قدوة حسنة ، فيتعاون مع بنى جنسه ومواطنيه ، ويقاسمهم عيشة راضية واشتراكية سليمة ، تقوم على العدل والقسط فلا يسرف فى الطعام ، ويتغالى فى البذخ متغاضياً عن المحرومين من إخوانه فى الوطن ، بل عليه أن يستعد لما تتطلبه ظروف الحياة من اقتصاد وتقشف وتضحية فى سبيل المجتمع ، وعليه كذلك أن يحتاط للدفاع عن أهله ومواطنيه الذين يحيا معهم ، فينشئ على حدود الوطن العزيز خطوط للدفاع ، تحول دون غزو أعدائه مضحياً بنفسه وبكل ما يتطلبه ذلك من نفقات واقتصاد ، أسوة بما اتخذه النبات من تحوير أعضائه الغالية الضرورية ، وما استشهد منها فى هذا السبيل ، وما أعده من أشواك وعراقيل ، تمنع غزو الأعداء للوطن المقدس ، فما أجدر الناس بأن يتخذوا من هذه الآيات عبرة وموعظة ، ولا يمرون عليها وهم يغضبون أبصارهم ، كقوله تعالى ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾[1] .

(١) الآية ٧٣ من سورة الفرقان .

من المعجزات الكامنة فى البذور

إن من آيات الله البالغة فى النبات ما أودع من أسرار فى بذوره التى يناط بها أصلا وظيفة انتشار النبات واتساع مملكته ، وعدم انقراضه ، فهى تنتشر بوسائل مختلفة ، وجسمها مكيف بحيث يتلاءم وتلك الوسائل التى تحقق مهمتها ، فبعض بذوره خفيفة الوزن تذروها الرياح ، وأخرى ذات أجنحة يحملها الهواء وينقلها إلى موطن آخر .

ومن البذور ما يطفو على سطح الماء لأنها أقل كثافة منه ، وقد تزود بجيوب هوائية لسهولة الطفو وبعضها يتكون من ثمار تغرى الحيوان والطير بأكلها ، فتحملها فى بطونها وتنتقل بها إلى جهات مائية عن مصدرها ، ثم تهضم الثمار دون أن تتلف بذورها ، لأن لها أغطية من أنسجة خاصة غير قابلة للهضم ، فتمر فى القناة الهضمية حية سالمة وتخرج من الجسم مع الفضلات لتنبت فى أرض موطن جديد بعيد .

ومن الثمار ما يتفجر عند النضج فتقذف بالبذور فتتناثر بعيداً عن نبات الأم ، حتى لا تكتظ النباتات الجديدة وتتنازع الغذاء والبذور ، لا يزال يكتنفها سر لم يكتشفه العلم بوضوح للآن ، وهو قدرة احتفاظها بحيويتها .

فالمعروف فى علم النبات أن للبذرة فترة من الزمن (تعرف بفترة الراحة) تقضيها سالمة حية ، حتى تتاح لها الظروف فتنبت وتخرج نباتاً ، كالذى نشأت فيه ، وتختلف مدى هذه الفترة باختلاف نوع النبات ، فهى قصيرة فى بعضها (كبذور المانجو) وتطول فى البعض الآخر (كبذور نبات الهالوك) التى تمكث فى الأرض حية بضع سنين ، انتظاراً للنبات العائل الذى تتطفل عليه فيبدأ إنباتها .

وللبذور فى فترة الراحة قدرة عظيمة على تحمل التغيرات الخارجية ، فقد ثبت من التجارب أن بعض البذور الجافة تظل حيةً إذا ارتفعت الحرارة إلى درجة غليان الماء (١٠٠ درجة مئوية) فى حين أن جنينها عندما تنبت يموت إذا تعرض لدرجة ٦٠ مئوية .

وقد اختبرت درجة مقاومة البذور بإحاطتها بضعة أيام بالهواء السائل ، بحيث انخفضت درجة الحرارة إلى ١٩٤ تحت الصفر ، فلم تتأثر بذلك ، ونجح إنباتها مع أن نشاط الجنين فى الأحوال العادية يتوقف ويهلك إذا إنخفضت درجة الحرارة حتى درجة الصفر المئوية .

ولا يمكن الاستدلال على حيوية البذور بمظهرها الخارجى ، بل ولا بالتشريح الداخلى ، فهى تبدو سالمة من العفن ، ونخر الحشرات ، وكل تلف معروف ، ومع ذلك تفشل عند الإنبات فى حين أم مثيلاتها تماماً ينجح إنباتها .

وتعليل ذلك أن الأولى فقدت حيويتها ، وظلت الأخرى حية ، ولا يعرف للآن تفسير واضح لهذه الظاهرة ، فالحياة أو الروح ما زالت من أمر ربنا الذى خلق الموت والحياة .

وهكذا نرى أن البذور التى نزرعها لا تنبت إلا بإذن الله ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ما

تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[١] .

فعسى الله أن يوفق عباده الصالحين ، ومن يحيطونه بشيء من علمه بقدر ما يشاء ، ليهتدوا لحل هذا السر العظيم .

وكما أشار القرآن الكريم إلى التأمل فى قدرة الله التى تجلت فى حيوية البذور ، نبهنا كذلك إلى التدبر والبحث فى المراحل التى تطرأ بعد أن أنزل الله من السماء ماء فنبتت به البذور بقدرته ، وأخرجت النبات الذى يحمل الأزهار ، فتتفق وتكون حباً وثماراً مختلفة ، بعضها متشابه والبعض غير متشابه ، وقد فكر العلماء ملياً ، واستلفت نظرهم هذا التشابه والاختلاف ، وانتهى بهم التفكير إلى دراسة فرع خاص من علم النبات ، وهو فرع (تقسيم النبات) أو (النبات الترتيبى) أو (التكسونوميا) .

فجعلوا مملكة النبات رتباً وفصائل وعائلات وأجناساً ، لسهولة التعرف على أفرادها ، ومعرفة درجة الصلة والقرابة بينها ، وقد يسر ذلك دراسة علم الوراثة فى النبات والتعمق فى نظرياتها ، حتى أمكن الحصول على خلف طيب من أبوين متشابهين ، هو خير من كل منهما .

وكان من نتيجة هذا الكشف أن أفادت الزراعة فائدة عظمى بإيجاد سلالات جديدة ، أوفر غلة ، وأعظم ربحاً .

فتأمل قوله تعالى ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[٢] .

النار من الشجر الأخضر

فى عالم النبات معجزات كثيرة غير ما سبقت الإشارة إليه ، تحار العقول فى إدراكها ، وتعليل كيفية حدوثها ، لأننا فى الواقع لا نرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة التى تابعها النبات إلى أن وصل لهذه النتيجة .

فمن الظواهر التى استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة ، مسألة تكوين الخشب فى جسم النبات الأخضر ، ومن هذا الخشب توقد النار التى هى مصدر لطاقة لا غنى لنا عنها فى حياتنا اليومية .

وفى القرآن آيات تشير إلى ذلك ، وقد تذكر الناس بقدرة الخلاق العظيم ، لعلهم يهتدون كقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾[٣] .

وعندما نتدبر معنى هذه الآية نجد أنها تشير إلى أصول البحث فى علوم مختلفة ، مثل الكيمياء والنبات والأحياء والطبيعة وغيرها .

(١) الآيتان ٦٣ ، ٦٤ من سورة الواقعة . (٢) الآية ٩٩ من سورة الأنعام . (٣) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة الواقعة .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة ودراسة العلوم ، لكى يتيسر لهم تفسيره تفسيراً صحيحاً يفيدون منه ، ويتحقق بذلك رسالة القرآن الإلٰهية ، وصلتها بحياة الإنسان ، وما خلق الله فى السموات والأرض . وسنعالج فيما يلى تفسير هذه الآية بقدر ما يتسع له هذا المقام ، ونتبين كيف تتمشى العلوم الحديثة مع آيات القرآن الحكيم .

فالله سبحانه وتعالى خلق خلايا النبات التى تنبنى منها أنسجته وأعضاؤه ، وسوّاها وقدّرها ، ثم هداها لبناء الخشب (الذى توقد منه النار) بتوجيه تهيمن عليه حيوية تلك الخلايا ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذى يكمن فى هذه الظاهرة .

وفيما يلى شرح مختصر للخطوات التى سلكها النبات لتكوين الخشب :

دأب الإنسان من القدم على أن يتخذ من الشجر وقوداً ، ثم تدرج إلى صناعة (الفحم النباتى) منه وإدخاره ليوقد عند الحاجة .

وما الفحم الحجرى الذى يستخرج الآن من المناجم الغائرة فى بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طمرت فى الأرض ، وتوالت عليها أحقاب سحيقة من الزمن ، استغرقت آلاف آلاف السنين ، وطرأ عليها فى غصونها تغيرات مختلفة (فتكربنت) أى (تفحمت) وأصبحت ذلك الفحم المعروف ، والفحم يكاد يتكون كله من الكربون وهو عنصر يحترق باتحاده مع أكسجين الهواء ، ويدخل فى تركيب كل مادة عضوية .

فالفحم أصله الخشب الذى كونه النبات ، وبناه فى جسمه ، ومن عجب أن هذه الكتل من الخشب وما نتج عنها من الفحم ، إنما بناها النبات من غاز ثانى أكسيد الكربون الذى يوجد فى الهواء مختلطاً مع غازات أخرى ، ولم تعرف هذه الحقيقة إلا فى نهاية القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر .

وقد أوحى الله إلى النبات ، وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الجوى (ويمثله) فى جسمه لبناء الخشب وغيره من المواد العضوية ، فى درجة الحرارة العادية دون عناء ملحوظ ، ولا أعراض ظاهرة ، فى حين أن فصل الكربون عن ثانى أكسيد الكربون يتطلب من الكيميائى درجة حرارة مرتفعة ، وأجهزة يستخدمها فى المعمل لهذا الغرض والله سبحانه وتعالى أمد النبات بالطاقة والوسائل التى يستعين بها على أداء عملية (تمثيل الكربون) وفصله عن غاز ثانى أكسيد الكربون ، ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة (بالخضير) أو الكلوروفيل .

ولذا فإن الشجر الأخضر (والأخضر دون سواه) هو الذى يستطيع أن يمثل الكربون ، وهو أصل الخشب الذى نوقد منه النار .

فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصة امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس (وهى الحمراء

والبرتقالية) وبهذا المجهود الضوئى تستعين المادة الحية التى فى خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثانى أكسيد الكربون ، ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية (تمثيل الكربون) باتحاد الكربون مع عنصرى الماء (وهما الأيدروجين والأكسجين) ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر .

على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد ، ولتفسير ذلك نظريات مختلفة فى علم الذرة الحديث لا يتسع له هذا المقام .

ومتى تم تكوين هذا المحلول السكرى ينتقل من خلية لأخرى ، حتى يصل إلى الأوعية الخاصة التى يتكون فيها الخشب ، فيختزن فيها ثم يتركز تدريجياً ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة (مثل اللجنين والسوبرين) فتستقر فى موضع التخزين ، وتصبح مادة صلبة هى الخشب المعروف .

ومن العجب أن هذه الخلايا النباتية التى اشتركت فى تكوين الخشب ، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة فلا يزيد قطر الواحدة منها عن ١/١٠٠٠ من المليمتر (ككثير من الخلايا التى سبق ذكرها فى مناسبات مختلفة) ومع ذلك فقد أودع الله الحياة فى تلك الخلايا وسخر لها الإمكانيات ، فقامت بعملها المعجز .

وبعد – فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثانى أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل أن ينهض بتكوين الخشب كما كونه النبات ؟ كلا ، لأن هذه الإمكانيات ينقصها العامل الهام الفعال وهو الحيوية التى أودعها الخالق سبحانه وتعالى فى مادة الخلية ، وهداها لأداء هذه المهمة ، بعد أن خلقها وقدرها : فهو الذى قدر فهدى وهو الذى ﴿ أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾[١] .

وأنى للإنسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية ، وقد جعل الله لعقله أفقاً محدوداً ، ولم يؤته من العلم إلا قليلا ، فإذا طعن فى السن وبلغ من العمر أرذله نكسه الله فى الخلق ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾[٢] .

هذا الإنسان الذى يجأر اليوم بقهره الذرة وتحطيمها ، ويصنع منها قنابل ذرية وصواريخ يرسلها على بنى جنسه وبالا ودماراً يهلك حرثهم ، ويفنى نسلهم ، قد نسى خلقه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وراح يضرب لخالقه مثلا فقال ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾[٣] فأنزل الله فى القرآن على نبيه ﷺ .

﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٤] .

ليبين لهذا الإنسان أن الذى خلق العظام من العدم لا يعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى ، وشاء الله كذلك أن يعلم الإنسان مالم يعلم ، ويعظه ويظهر له قلة حيلته إلى جانب قدرته تعالى التى لا تحد ، فقال

(١) الآية ٥٠ من سورة طه .
(٢) الآية ٥ من سورة الحج .
(٣) الآية ٧٨ من سورة يس .
(٤) الآية ٧٩ من سورة يس .

إن الذى أنشا العظام أول مرة ثم يحييها هو ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾[١] .

ومن إعجاز القرآن فى هذه الآية الكريمة أن الخشب لا يتكون إلا من الشجر الأخضر بالتخصيص ، لاحتوائه على مادة (الكلوروفيل) كما أسلفنا ، وكما هو ثابت فى بحوث علم النبات .

وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامداً فى موضعه ، قد استطاع أن يصنعه من الهواء والماء والضوء ، وفشل الإنسان فى هذا المضمار الضيق ، وتفوقت عليه تلك الخلية ونجحت فى تكوين الخشب ، وهى من أصغر مخلوقات الله حجماً .

كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، ويعرفون قدر أنفسهم فيقول : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[٢] .

فانظر كيف ضعف الإنسان وآلهته التى كان يشرك بها عن خلق ذبابة حقيرة ، بل وعن استرداد ما تسلبه منه .

ألا فكم تكون ضآلة قدرة الإنسان الذى قهرته الخلية الضئيلة ، والذبابة الدنيئة إزاء خلق السموات والأرض ، وهى أكبر من خلق الناس كما قال تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٣] .

والقرآن حثنا على النظر إلى الكائنات المختلفة التى حولنا ، وفى أنحاء الكون ونبهنا إلى التمعن والتفكير فى كيف خلقها الله تعالى بهذا الكمال البديع ، الذى يسبح بقدرة خالقها العظيم ، فاستمع لقوله تعالى ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[٤] .

وتأمل بلاغة القرآن فى هذه الآيات الموجزة المعجزة ، وهى تنبهنا على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولوجيا (علم طبقات الأرض) والجغرافيا .

ويلاحظ أن الاستفهام الإنكارى الوارد فى بدء الآيات الكريمة لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيت وتقريع للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ، ثم يغضون أبصارهم ، ويكتفون بنحو قولهم ﴿ سبحان الخلاق العظيم ﴾ دون أن يعملوا بأمر الله إذ كلفهم بالإنابة والتمعن فى الكيفية التى أنشئت بها هذه المخلوقات .

تباركت ربنا وتعاليت ، سبحانك خلقت ، وحكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، وبطنت

---

(١) الآية ٨٠ من سورة يس .
(٢) الآية ٧٣ من سورة الحج .
(٣) الآية ٥٧ من سورة غافر .
(٤) الآيات ١٧ — ٢٠ من سورة الغاشية .

فخبرت ، وملكت فقدرت ، خلقت الأرض منها قطع متجاورات ومتباينات بعضها رخو وبعضها صلب ، قطعة تنبت وقطعة لا تنبت ، وفى الأرض قطع متجاورات ترابها واحد وماؤها واحد ، وفيها زرع واحد ، ثم تتفاوت الثمرة ، بعضها حلو وبعضها مر ، بعضها يثمر وبعضها لا يثمر .

وفى الأرض جنات وبساتين من زروع ونخيل وأعناب وغيرها من الفواكه التى عرفت فى غير جزيرة العرب .

ومن عجائب النخل أن فيه صنواناً وغير صنوان ، والمعنى أن أشجار النخيل قد تكون الواحدة لها رأسان وأصل واحد ، وقد تكون غير ذلك كبقية الشجر ، وقيل المعنى أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وغير متماثلة مع اتحاد التربة ، والزرع يسقى ذلك كله بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل .

أليس فى هذا دليل على بديع صنعه وعظيم قدرته ، فإن القطع المتجاورة وفيها الجنات متلاصقة ، بل والأشجار المتشابكة المتداخلة ، تسقى بماء واحد وبنظام واحد ، وبذرها واحد ، ثم نرى فى بعضها نضجاً وكمالا وحلاوة ، وفى البعض جفافاً ونقصاً ، وصغرا وحموضة بل وطعماً متغيراً تمام التغير عن زميلتها .

أليس هذا دليلا على وجود القادر المختار الواحد القهار ، وأن الدنيا لم تسر بطبعها من غير مدبر لها حكيم ، إن فى ذلك لآيات وحججاً ، ولكن لقوم يعقلون ويتدبرون بفكر حر وعقل سليم .

الحكم على منكرى البعث والنبوة

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾

المفردات : ﴿ **العجب** ﴾ : تغير النفس حين رؤية ما يُستبعد فى مجرى العادة . ﴿ **الأغلال** ﴾ : واحد غُل وهو طوق من الحديد طرفاه . فى اليدين ويحيط بالعنق . ﴿ **المثلات** ﴾ : (بفتح فضم) واحدها مثلة (بفتح فضم) وهى العقوبة التى تترك فى المعاقب أثراً قبيحاً كصلم أذن أو جدع أنف أو سمل عين . ﴿ **الغفر** ﴾ : الستر بالامهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، والمراد بالآية هنا الآيات الحسية كقلب عصا

موسى حية وناقة صالح . ﴿ **الإنذار** ﴾ : التخويف . ﴿ **الهادى** ﴾ : القائد الذى يقود الناس إلى الخير كالأنبياء والحكماء والمجتهدين .

يخبر الله تعالى عن حال المشركين المنكرين للبعث ، فيقول لرسوله ومصطفاه ، ولكل من يتأتى منه الخطاب ﴿ **وإن تعجب** ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد ، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ، ودلائله فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع ما يعترفون به من أنه أبتدأ خلق الأشياء ، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبرة فى أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً ، وقد أعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به .

فالعجب من قولهم ﴿ **أئذا كنا تراباً أإنا لفى خلق جديد** ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل ، كما قال سبحانه : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾[١] .

ثم نعت المكذبين بهذا ، فقال ﴿ **أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم** ﴾ أى يسحبون بها فى النار ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ أى ما كثون فيها أبداً ، لا يحولون عنها ولا يزولون .

قوله تعالى ﴿ **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ أى يستعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب والعقوبة ، كما جاء فى قوله تعالى عنهم : ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبراً جميلا * إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً * يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسئل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعوا من أدبر وتولى * وجمع فأوعى ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الأحقاف .
(٢) الآيات ٦ – ٨ من سورة الحجر .
(٣) الآيات ٥٣ – ٥٥ من سورة العنكبوت .
(٤) ١ – ١٨ من سورة المعارج .

الحق ﴾[١] ، ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا ﴾[٢] الآية أى عقابنا وحسابنا ، كما قال مخبراً عنهم : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٣].

فكانوا من شدة كفرهم وتكذيبهم وعنادهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله .

وقوله تعالى ﴿ **وقد خلت من قبلهم المَثُلات** ﴾ أى قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية ، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم .

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة ، كما قال ﴿ **ولو يؤاخذالله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة** ﴾ وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم** ﴾ أى أنه تعالى ذو عفو وصفح ، وستر للناس ، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف .

كما قال تعالى : ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾[٤] وقال : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾[٥] . وقال : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾[٦] . إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف .

وقال ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم** ﴾الآية قال رسول الله ﷺ : (لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد) .

وقوله تعالى : ﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** ﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن المشركين : أنهم يقولون كفراً وعناداً لولا يأتينا بآية من ربه ، كما أرسل الأولون ، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح قمم الجبال ويجعل مكانا مروجاً وأنهاراً ، كما قال تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾[٧] .

وكما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾[٨] .

(١) الآية ١٨ من سورة الشورى .
(٢) الآية ١٦ من سورة ص .
(٣) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٤) الآية ١٤٧ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام .
(٦) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الحجر .
(٧) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .
(٨) الآيات ٩٠ – ٩٣ من سورة الإسراء .

وقوله تعالى ﴿ **إنما أنت منذر** ﴾ أى إنما عليك أن تبلغ الرسالة التى أمرك بها ، ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴾[(١)] .

وقوله : ﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ قال ابن عباس : لكل قوم داع ، وقيل أنت يا محمد منذر وأنا هادى كل قوم ، وقيل ﴿ **لكل قوم هاد** ﴾ أى نبى وقيل قائد ، وقيل الهاد هو محمد ﷺ . وقال مالك ﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل .

علم الله محيط بكل شىء

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **الغيض** ﴾ : النقصان ، يقال غاض الماء وغيضته كما قال ﴿ وغيض الماء ﴾[(٢)] . ﴿ **بمقدار** ﴾ : أى بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه . ﴿ **والغائب** ﴾ : ما غاب عن الحس . ﴿ **والشاهد** ﴾ : الحاضر المشاهد . ﴿ **الكبير** ﴾ : العظيم الشأن . ﴿ **المتعال** ﴾ : المستعلى على كل شىء . ﴿ **أسر الشىء** ﴾ : أخفاه فى نفسه . ﴿ **والمستخفى** ﴾ : المبالغ فى الاختفاء . . ﴿ **والسارب** ﴾ : الظاهر من قولهم سرب إذا ذهب فى سربه . ﴿ **معقبات** ﴾ : أى الملائكة تعتقب فى حفظه وكلاءته واحدها معقبة ، من عقبة : أى جاء عقبه . ﴿ **من بين يديه** ﴾ : أى قدامه ، ومن خلفه أى من ورائه . ﴿ **من أمر الله** ﴾ : أى بأمره وإعانته . ﴿ **وال** ﴾ : أى ناصر .

اعلم بأن علم الله تعالى محيط بكل شىء ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[(٣)] ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً

(١) الآية ٢٧٢ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٤٤ من سورة هود .

(٣) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾[١] . ﴿ ألم تر أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم﴾[٢] .

الله يـــدرى كل ما تضمـــــر يعلـــم ما تخفـــى وما تظهـــــر
وإن خـدعت النـاس لم تستطـــع خـداع مـن يطـوى ومـن يــنشر

سبحانه أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم مالا يكون ، لو كان كيف كان يكون ، ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾[٣] ، ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ : هذا إخبار من الله تعالى عن تمام علمه الذى لا يخفى عليه شىء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، كما قال تعالى ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾[٥] أى ما حملت من ذكر أو أنثى ، أو حسن أو قبيح ، أو شقى أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره كقوله تعالى ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة ﴾[٦] الآية .

وقال تعالى ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾[٧] : أى خلقكم طوراً بعد طور .

كما قال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٨] .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه وعمره وعمله وشقى أو سعيد) وفى الحديث الآخر (فيقول الملك أى رب أذكر أم أنثى ؟ أى رب أشقى أم سعيد فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيقول الله ويكتب الملك)[٩] .

قوله تعالى : ﴿ **وما تغيض الأرحام وما تزداد** ﴾ . قال البخارى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : لا يعلم ما فى الغد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان .
(٢) الآية ٧ من سورة المجادلة .
(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة طه .
(٤) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .
(٥) الآية ٣٤ من سورة لقمان .
(٦) الآية ٣٢ من سورة النجم .
(٧) الآية ٦ من سورة الزمر .
(٨) الآيات ١٢ - ١٤ من سورة المؤمنون .
(٩) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٦) وفى الأنبياء (١) وفى القدر (١) . ومسلم فى القدر (١) . وأبو داود فى السنة (١٦) . والترمذى فى القدر(٤) . وابن ماجه فى المقدمة (١٠) .

الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)[١] .

وقال بعض المفسرين ﴿ **وما تغيض الأرحام وما تزداد** ﴾ أى وما تنقصه الأرحام وما تزداده من عدد فى الولد ، فقد يكون واحداً ، وقد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومن جسده فقد يكون تاماً ، وقد يكون ناقص الخلق وهو المخدج ، ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريباً .

قوله تعالى ﴿ **وكل شىء عنده بمقدار** ﴾ أى ولكل شىء ميقات معين لا يعدوه زيادة ولا نقصاً ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[٢] .

وفى معنى الآية قوله تعالى : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[٣] وفى الحديث : (إن إحدى بنات النبى ﷺ بعثت إليه رسولا : أن ابناً لها فى الموت ؟ وأنها تحب أن تحضره ، فبعث إليها يقول : إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب ﴾[٤] .

تذكر جميلى مذ خلقتك نطفة ... ولا تنس تصويرى ولطفى فى الحشا
وسلم إلى الأمر واعلم بأننى ... أدبر أحكامى وأفعل ما أشا

تباركت يا أحسن الخالقين ، أنت القائل وقولك الحق ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾[٥] وأنت القائل ﴿ وهو الذي انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾[٦] سبحانك .

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى ... ولا الشئون التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى ... أحاط بى علمه من قبل تصويرى

﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء * هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٧] .

انظر إلى المرء وقل ... من شق فيه بصره
من ذا الذى جهزه ... بقوة مفتكره
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة

(١) أخرجه البخارى فى الاستسقاء (٢٩) وفى التفسير (سورة ١٣ : ١) وفى التوحيد (٤) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٤ ، ٥٢ ، ٥٨) .
(٢) الآية ٦١ من سورة النحل .
(٣) الآية ٤٩ من سورة القمر .
(٤) أخرجه البخارى فى الجنائز (٣٢) وفى الأيمان (٩) وفى القدر (٤) وفى التوحيد (٢ ، ٢٥) . ومسلم فى الجنائز (١٣) . والنسائى فى الجنائز (٢٢) .
(٥) الآيات ٢٠ – ٢٣ من سورة المرسلات .
(٦) الآية ٩٨ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ٥ ، ٦ من سورة آل عمران .

ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

تباركت يا أحسن الخالقين

تلك الخليقة قف بنا ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه تمحو أثيم الشك والإنكار

سبحانه آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .
﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[١] .

قوله تعالى ﴿ **عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾

﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ : أى يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ، ومما يغيب عنهم ولا يخفى عليه منه شيء ، ﴿ **الكبير** ﴾ الذى هو أكبر من كل شيء ، ﴿ **المتعال** ﴾ أى على كل شيء ﴿ قد أحاط بكل شيء علماً ﴾[٢]، وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً .

قوله تعالى : ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وماهم من دونه من وال** ﴾ :

سبحانك ربى يامن يسمع دبيب أرجل النملة السمراء ، فى الليلة الظلماء ، فوق الصخرة الصماء .

يا من يرى مد البعوض جناحه فى ظلمة الليل البهم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها والمخ فى تلك العظام النُحَّل
ويرى ويسمع بل يرى ما دونها فى قاع بحر زاخر متجندل

﴿ **سواء منكم** ﴾ أيتها المخلوقات ﴿ **من أسر القول ومن جهر به** ﴾ فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء ، كقوله تعالى ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾[٣] وقال : ﴿ **ويعلم ما تخفون وما تعلنون** ﴾[٤] .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « سبحان الذى وسع سمعه الأصوات والله لقد جاءت المجادلة

---

(١) الآيات ٥ - ٧ من سورة الحج .
(٢) الآية ١٢ من سورة الطلاق .
(٣) الآية ٧ من سورة طه .
(٤) الآية ٢٥ من سورة النمل .

تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وأنا فى جنب البيت ، وإنه ليخفى على بعض كلامها ، فأنزل الله سبحانه ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

وقوله ﴿ **ومن هو مستخف بالليل** ﴾ أى مختف فى قعر بيته فى ظلام الليل (وسارب بالنهار) أى ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه ، فإن كليهما فى علم الله على السواء كقوله تعالى ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ ، ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾

أى للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرس الليل وحرس النهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ملائكة بالليل ، ملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، وصاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه ، وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، هم حافظان وكاتبان .

كما جاء فى الصحيح : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون)[٣] .

وفى الحديث الآخر : (إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم) .

وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبرى عن كنانة العدوى قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله .. أخبرنى عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال : (ملك على يمينك على حسناتك ، وهو أمير على الذى على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشراً ، وإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين : أكتبها ؟ قال : لا ، لعله يستغفر الله ويتوب فيستأذنه ثلاث مرات ، فإذا قال ثلاثاً قال : اكتبها أراحنا الله منه فبئس القرين ، ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا يقول الله : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه ﴾ – الآية – وملك قابض على ناحيتك فإذا تواضعت لله رفعك ، وإذا

(١) الآية ٥ من سورة هود . (٢) الآية ٦١ من سورة يونس .

(٣) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٦) وفى المواقيت (١٦) وفى التوحيد (٢٣ ، ٣٣) . ومسلم فى المساجد (٢١٠) . والنسائى فى الصلاة (٢١) . والإمام مالك فى السفر (٨٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٥٧ ، ٣١٢ ، ٣٩٦ ، ٤٨٦) .

تجبرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمى ، وإبليس بالنهار وولده بالليل . وقال الإمام أحمد عن سالم بن أبى الجعد عن أبيه عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يارسول الله ، قال (وإياى ولكن الله أعاننى عليه فأسلم) .

قوله تعالى : ﴿**يحفظونه من أمر الله**﴾ أى بأمر الله وقد جاء فى الحديث أنهم قالوا يارسول الله : أرأيت رقياً نسترق بها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال ﴿ هى من قدر الله ﴾ .

قوله تعالى : ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ روى ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون ثم قال إن تصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ .

وقد ورد هذا فى حديث مرفوع فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى كتابه صفة العرش حدثنا الحسن بن على حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمى حدثنا أبو حنيفة اليمانى الأنصارى عن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة قال : « كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدأنى ، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى ، وإنه حدثنى عن ربه عز وجل قال : [قال الرب وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ما من قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتى ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى مايحبون من رحمتى] .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾ :

هو كقوله جل شأنه ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾[1] .

فإن عدالة الله تعالى اقتضت أن يعاقب أهل الظلم والطغيان ، فإذا ماحقت كلمة العذاب عليهم فإنه لا مرد لما قضى الله . قال تعالى ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾[2] فإذا ما أراد الله بهم ذلك ، فلن يجدوا من دون الله من ولى ولا نصير .

من الآيات الكونية

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ

(١) الآية ٥٩ من سورة الكهف . (٢) الآية ٧٦ من سورة هود .

ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾

المفردات : ﴿ **البرق** ﴾ : مايرى من النور لامعاً خلال السحاب . ﴿ **والرعد** ﴾ : هو الصوت المسموع خلال السحاب . وسببهما على ما بين فى العلوم الطبيعية — أن البرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفتى الكهربائية ، حتى يصير ميل أحدهما للاقتراب من الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما فتهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوى شديد فذلك النور هو البرق . والصوت هو الرعد الذى نشأ من تصادم دقائق الهواء الذى تطرده كهربائية البرق أمامها ، ﴿ **والصواعق** ﴾ : واحدها صاعقة . وسببها أن السحب قد تمتلىء بكهربائية ، والأرض بكهربائية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فإذا قاربت السحب وجه الأرض تنقص الشرارة الكهربائية منها فتنزل صاعقة تهلك الحرث والنسل ، ﴿ **والمجادلة** ﴾ من الجدل وهو شدة الخصومة ، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، كأن المجادلين يفتل كل منهما الآخر عن رأيه . ﴿ **والمحال** ﴾ : المماحلة والمكايدة لأعدائه ، يقال محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك ، وتمحل إذا تكلف فى استعمال الحيلة ، فى ضلال أى ضياع وخسار ، ﴿ **والظلال** ﴾ : واحدها ظل وهو الخيال الذى يظهر للجرم ، ﴿ **والغدو** ﴾ : واحدها غداة وهى أول النهار . ﴿ **والآصال** ﴾ : واحدها أصيل : ما بين العصر والمغرب .

بعد أن خوف الله سبحانه عباده ، بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا يدفعه أحد أتبعه بذكر آيات ، تشبه النعم والإحسان حيناً ، وتشبه العذاب والنقم حيناً آخر .

روى أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر ، فأبى عليهما ذلك فقال له عامر ، لعنه الله : أما والله لأملأنها عليك خيلا جرداً ، ورجالا مردا ، فقال له رسول الله ﷺ : يأبى الله عليك ذلك وابناء قيلة (الأنصار من الأوس والخزرج) ثم إنهما هما بالفتك برسول الله ﷺ ، فجعل أحدهما يخاطبه ، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه فحماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة ، وانطلقا فى أحياء العرب يجمعان لحربه ، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأرسل الطاعون على عامر فخرجت فيه غدة كغدة البكر فآوى إلى بيت سلولية وجعل يقول : « غدة كغدة البكر وموت فى بيت سلولية . حتى مات » .

وأنزل الله فى مثل ذلك : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله ﴾ ﴿ **هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً** ﴾ : أى أنه سبحانه يسخر البرق فيخاف منه بعض عباده ، كالمسافر ومن فى جرينه التمر والزبيب للتجفيف ، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقى زرعه ،

وهكذا حال كل شيء فى الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه فى أوانه ، وشر بالنظر إلى من يضره بحسب مكانه أو زمانه .

﴿ **وينشىء السحاب الثقال** ﴾ : أى ويوجد السحب منشأة جديدة ممتلئة ماء ، فتكون ثقيلة قريبة من الأرض .

﴿ **ويسبح الرعد بحمده** ﴾ : أى إن فى صوت الرعد لدلالة على خضوعه وتنزيهه عن الشريك والعجز ، كما يدل صوت المسبح وتحميده على انقياده ، لقدرة ذلك الحكيم الخبير .

ونحو الآية قوله سبحانه ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[(١)] .

أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر : (كان رسول الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك)[(٢)] .

وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة : « أن رسول الله ﷺ كان إذا هبت الريح أو سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يعرف ذلك فى وجهه ثم يقول للرعد : سبحان من سبحت له وللريح : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً) .

﴿ **والملائكة من خيفته** ﴾ : أى ويسبح الملائكة الكرام من هيبته وجلاله ، وينزهونه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

﴿ **ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء** ﴾ إصابته بها يهلكه . ﴿ **وهم يجادلون فى الله** ﴾ : أى يجادلون فى شأنه تعالى ، وفيما وصفه من الرسول الكريم من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية ، وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم ، يوم العرض والحساب .

وفى هذا تسلية لرسوله ﷺ فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم فى اقتراحهم الآيات الحسية ، كآيات موسى وعيسى عليهما السلام ، وإنكارهم كون الذى جاء به عليه السلام آية سلاه بما ذكر ، كأنه قال له : إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة ، بل تخطوه إلى الألوهية ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد ، يجادلون فى الله باتخاذ الشركاء ، وإثبات الأولاد له ومع إحاطة علمه ، وشمول قدرته ، ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب ، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه ، يُقدمون على المكايدة والعناد ، فهوّن عليك ولا تذهب نفسك عليهم حسرات . ﴿ **وهو شديد المحال** ﴾ : أى وهو سبحانه لا يغالب فهو شديد البطش والكيد لأعدائه ، يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يترقبون . وهو القادر على أن ينزل عليهم عذابا من عنده ، لا يستطيعون حيلة لدفعه ، ولا قوة على رده لكنه يمهلهم لأجل معلوم بحسب ما تقتضيه الحكمة كما صح فى الحديث (إن ربك لا يهمل ولكنه يمهل) . .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات (٤٩) .

ومثل الآية قوله ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[١] وقوله : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ۞ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾[٢] .

قال ابن جرير فى تفسير ذلك : والله شديد فى عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى فى كفره.

﴿ **له دعوة الحق** ﴾ : أى له تعالى الدعاء والتضرع الواقع حيث ينبغى أن يكون والمجاب حين وقوعه ، أى إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره ، وفى هذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم لرسول الله ﷺ بحلول محاله بهم ، وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم ، وقيل دعوة الحق كلمة التوحيد : أى لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له وإنه شرعها وأمر بها . ﴿ **والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه** ﴾

أى والاصنام الذين يدعوهم المشركون ويتضرعون إليهم ، ويتجاوزون الله لا يجيبونهم بشىء مما يريدونه من نفع أو ضر إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه ، يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا شعور له ، ببسط الكفين ولا قبضهما ، فكيف يجيب دعاءه ، وهكذا أصنامهم لا تحير جواباً .

وخلاصة ذلك : إنه شبه آلهتهم حين استكفوا بهم ما أهمهم وهم لا يشعرون بشىء ، فضلا عن أن يجيبوا أحداً بماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه ، هلم أقبل إلى وهو لا يستطيع رداً ولا جواباً .

﴿ **وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ : أى فى ضياع وخسار ، فإن دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم .

ثم بين عظيم قدرته تعالى فقال : ﴿ **ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً** ﴾ :

أى وينقاد لعظمته كل شىء فيخضع له الملائكة والمؤمنون من الثقلين ، طوعاً فى الشدة والرخاء ، والكفار كرهاً فى حال الشدة ، كما جاء فى آيات كثيرة كقوله ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾[٣] وقوله ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[٤] وقوله ﴿ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[٥] .

﴿ **وظلالهم بالغدو والآصال** ﴾ أى لا تسجد أيضاً ظلال من له ظل منهما بالغدوات والعشايا تبعاً لانقياد الأجسام التى تشرق عليها الشمس ، ثم يصرفه إليه تعالى بالمد والتقلص ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص فيهما ، أو المراد بهما الدوام كما جاء ذلك كثيراً فى استعمالاتهم .

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٢) الآيتان ٥٠ ، ٥١ من سورة النمل .
(٣) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٢٢ من سورة يونس .

عقيدة الوحدانية

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾

سبحانك ربى أنت الواحد فى ذاتك ، لا قسيم لك ، الواحد فى صفاتك لا شريك لك أنت الواحد فى أفعالك ، لاشريك لك ، تنزهت عن الشريك ذاتك ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاتك ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزئ ، ولا متكيف ولا متلون ، ولا متناهى ، لا يسئل عنه بمتى كان لأنه خالق الزمان ولا بأين كان ، لأنه خالق المكان فسبحانه كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم مالا يكون ، لو كان كيف كان يكون لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل ولا النهار ، وهو الواحد القهار .

﴿ **قل من رب السموات والأرض قل الله** ﴾ وهنا يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو ، لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً ، أى لا تحصل لهم منفعة ، ولا تدفع عنهم مضرة . فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه .

ولهذا قال ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم** ﴾ :

أى أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب، وتماثله فى الخلق ، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره ، أى ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ولا نده ولا عدل له ، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة .

﴿**تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً** ﴾ وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة ،هم معترفون ، أنها مخلوقة

له عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم ، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً لك هو لك تملكه وما ملك وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1] .

فأنكر الله تعالى عليهم ذلك ، حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾[2] . ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[3] ، وقال : ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً • لقد أحصاهم وعدهم عداً • وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾[4] .

فإذا كان الجميع عبيداً فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع ، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك ، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله فكذبوهم وخالفوهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب لامحالة ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾[5] .

مثل للحق والباطل

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿ **الأودية** ﴾ : واحدها وادٍ وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء والفرجة بين الجبلين وقد يراد به الماء الجارى فيه . ﴿ **بقدرها** ﴾ : أى بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت أمكنتها صغراً وكبراً(واحتمل)أى حمل . ﴿ **الزبد** ﴾ : ما يعلو وجه الماء حين الزيادة كالحبب وما يعلو القدر عند غليانها . ﴿ **والرابى** ﴾ : العالى المرتفع فوق الماء الطافى عليه . ﴿ **الجفاء** ﴾ : ما رمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه .

---

(١) الآية ٣ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٢٣ من سورة سبأ .
(٣) الآية ٢٦ من سورة النجم .
(٤) الآيات ٩٣ ــ ٩٥ من سورة مريم .
(٥) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

جل جلال الله إذ يقول : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[1] .

قال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى ، لأن الله تعالى يقول ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه ، والباطل فى اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى : ﴿ **أنزل من السماء ماء** ﴾ أى مطراً ﴿ **فسالت أودية بقدرها** ﴾ أى أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير ، وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم ، بل يضيق عنها ﴿ **فاحتمل السيل زبداً رابياً** ﴾ .

أى فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زبد عال عليه ، هذا مثل وقوله ﴿ **ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع** ﴾ هذا هو المثل الثانى ، وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية ، أى يجعل حلية أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً ، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل** ﴾ أى إذا اجتمعا لاثبات للباطل ، ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ، ولا مع الذهب والفضة ونحوها مما يسبك فى النار ، بل يذهب ويضمحل . .

ولهذا قال ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء** ﴾ أى لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع فيه شيء ، ولا يبقى إلا الماء ، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال ﴿ **وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها** ﴾ هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله ، وهو قوله ﴿ **فأما الزبد** ﴾ وهو الشك ﴿ **فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ وهو اليقين ، وكما نجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ، ويترك خبثه فى النار ، فكذلك يقبل الله اليقين ، ويترك الشك .

وقال العوفى عن ابن عباس :

﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا** ﴾ .

يقول احتمل السيل ما فى الوادى : ﴿ **ومما يوقدون عليه فى النار** ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد ، فللنحاس والحديد خبث ، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء ، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت ، فجعل ذاك مثل العمل الصالح

(١) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .

يبقى لأهله ، والعمل السيء يضمحل عن أهله ، كما يذهب هذا الزبد ، وكذلك الهدى والحق جاء من عند الله ، فمن عمل بالحق كان له ، وبقى كما بقى ما ينفع الناس فى الأرض .

وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سبيكة ولا سيف ، حتى يدخل فى النار ، فتأكل خبثه ، ويخرج جيده ، فينتفع به ، فكذلك يضمحل الباطل ، فإذا كان يوم القيامة ، وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق وهكذا .

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين : ناريا ومائيا ، وهما قوله ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ﴾[١] ثم قال ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾[٢] .

وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مثلين (أحدهما) قوله ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب ﴾[٣] والسراب إنما يكون فى شدة الحر .

ولهذا جاء فى الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة فما تريدون ؟ فيقولون أى ربنا عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا يردون . فيردون النار فإذا هى كسراب يحطم بعضها بعضاً . ثم قال تعالى فى المثل الآخر : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى ﴾[٤] .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا وأصابت طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ﴾[٥] فهذا مثل مائى .

وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال (مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال فذلكم مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبونى فتقتحمون فيها ﴾[٦] .

قوله تعالى ﴿ **للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لوأن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ .

---

(١) الآية ١٧ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٩ من سورة البقرة
(٣) الآية ٣٩ من سورة النور .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النور .
(٥) أخرجه البخارى فى الرقاق (٢٦) ووفى الاعتصام (٢) .
(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق (٢٦) .

هذا إخبار من الله تعالى عن مآل السعداء والأشقياء ، فقال ﴿ **للذين استجابوا لربهم** ﴾ أى أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم ﴿ **الحسنى** ﴾ وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى مخبراً عن ذى القرنين انه قال ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ **والذين لم يستجيبوا له** ﴾أى لم يطيعوا الله .

وقوله ﴿ **والذين لم يستجيبوا له** ﴾ أى لم يطيعوا الله . ﴿ **لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً** ﴾ أى فى الدار الآخرة ، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ، ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا ﴿ **أولئك لهم سوء الحساب** ﴾ أى فى الدار الآخرة ، أى يناقشون على النقير والقطمير ، والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عُذِب .

ولهذا قال ﴿ **ومأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى ﴿ **أنزل إليك** ﴾ يا محمد ﴿ **من ربك** ﴾ هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية ، ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً ، لايضاد شيء فيه شيئاً آخر .

فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ﴾[٢] أى صدقاً فى الأخبار ، وعدلا فى الطلب ، فلا يستوى من تحقق صدق ماجئت به يا محمد ، ومن هو أعمى ، لا يهتدى إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ، ولا اتبعه كقوله تعالى : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[٣] .

وقال فى هذه الآية الكريمة ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى** ﴾ أى أفهذا كهذا ؟ لا استواء وقوله ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ أى إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

---

(١) الآيتان ٨٧ ، ٨٨ من سورة الكهف .
(٢) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٢٠ من سورة الحشر .

صفات أولى الألباب

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **يدرءون** ﴾ : أى يدفعون . ﴿ **والعدن** ﴾ : الأقامة يقال عدن بمكان كذا إذا استقر ومنه المعدِن لمستقر الجواهر . ﴿ **والدار** ﴾ : هى دار الآخرة .

هذه الكوكبة الدرية من الشمائل الرفيعة السنية التى وصف الله بها أولى الألباب ، وكأن هذا العقد الفريد من السجايا الحميدة جاءت جواباً على سؤال مقدر ، كأن سائلا قال : من هم أولوا الألباب والعقول الراجحة والأفئدة المستنيرة والمستبصرة ؟ فجاءت تلك الصفات فى تلك السلسلة الربانية تجيب عن هذا السؤال إجابة شافية كافية وافية تتألق نوراً ، وتفيض رحمة وجمالاً ، وتشع جلالا وبهاءاً ، وكمالا .

فإذا أردت أن تعرف من هم أولوا الألباب ، فاعلم أنهم هم الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿ **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾ فهم ليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان .

﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ : من صلة الأرحام فالرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ، فمن أراد أن ينسأ له فى أثره ، ويبارك له فى رزقه فليصل رحمه ، فإن الله تعالى لما خلق السموات والأرض قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك لك ، اقرءوا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1] .

كذلك مما أمر الله بوصله الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ، وبذل المعروف .

﴿ **ويخشون ربهم** ﴾ : أى فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون الله فى ذلك ، ويخافون سوء

(١) الآيات ٢٢ – ٢٤ من سورة محمد .

الحساب فى الدار الآخرة فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة فى جميع حركاتهم وسكناتهم ، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية .

﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم** ﴾ : أى عن المحارم والمآثم فقطموا أنفسهم عنها لله عز وجل ، ابتغاء مرضاته ، وجزيل ثوابه .

﴿ **وأقاموا الصلاة** ﴾ : بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها ، وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى .

﴿ **وأنفقوا مما رزقناهم** ﴾ : أى على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين .

﴿ **سراً وعلانية** ﴾ : أى فى السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، آناء الليل ، وأطراف النهار .

﴿ **ويدرءون بالحسنة السيئة** ﴾ : أى يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالا وصفحاً وعفواً ، كقوله تعالى : ﴿ أدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[1] .

ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة ، بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله ﴿ **جنات عدن** ﴾ : والعدن الإقامة ، أى جنات إقامة يخلدون فيها .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال : إن فى الجنة قصراً يقال له عدن ، حوله البروج والمروج ، فيه خمسة آلاف باب ، على كل باب خمسة آلاف حبرة ، لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد .

وقال الضحاك فى قوله ﴿ **جنات عدن** ﴾ مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء ، وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعد ، والجنات حولها . رواه ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم** ﴾ : أى يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباءوالأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، امتناناً من الله ، وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته ، كما قال تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾[2] .

وقوله تعالى ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

أى وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة فى دار السلام فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام :

(١) الآيتان ٣٤ ــ ٣٥ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٢١ من سورة الطور .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت ولا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غداً رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : (هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟) قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : (أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجة فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم . فيقول : إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، وتُسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء . قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾[1] . الطبرانى .

وعنه ﷺ أنه قال (أول ثلاثة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين ، الذين تتقى بهم المكاره ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهى فى صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها ، فيقول أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى وأوذوا فى سبيلى ، وجاهدوا فى سبيلى ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ، ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادى الذين جاهدوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾[2] .

وقال عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد ، حدثنا أرطاة بن المنذر : سمعت رجلا من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول : جلست إلى أبى أمامة فقال : « إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكة إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم ، وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول للذى يليه : ملك يستأذن . ويقول الذى يليه للذى يليه : ملك يستأذن . حتى يبلغ المؤمن فيقول : أئذنوا ، فيقول أقربهم للمؤمن : ائذنوا له ، ويقول الذى يليه للذى يليه : ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له ، فيدخل فيسلم ثم ينصرف » رواه ابن جرير .

وجاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء فى رأس كل حول ، فيقول لهم : ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

---

(١) أخرجه الأمام أحمد فى (٢ : ١٦٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ١٧٧) .

المفسدون فى الأرض

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾

وهذا الفريق من الأشقياء على نقيض الفريق الأول ، وهو فريق السعداء . فالأشقياء ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، بينما السعداء يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق . والأشقياء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، بينما السعداء يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

والأشقياء مفسدون فى الأرض ، ووجوه الإفساد كثيرة ومتنوعة ، على رأسها الظلم ، والاعتداء على حرمات المسلمين ، وإيقاع الأذى بالعباد لذا جاء فى الحديث (ولو كافرا فعليه كفره) .

بينما فريق السعداء يخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب .

ومن ثم فقد جاء الحكم عادلاً من الحكم العدل فقد حكم للأشقياء بقوله ﴿ **أولئك لهم اللعنة** ﴾ أى الطرد من رحمة الله ومغفرته ورضوانه ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ فى الآخرة ، وهل هناك دارٌ أسوأ من جهنم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾[1] والعذاب بالمغفرة .

كما حكم سبحانه لفريق السعداء بهذا الحكم العادل ﴿ **أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد ياغافلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال

حكمة الله فى الرزق

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

(١) الآية ١٦ من سورة البقرة .

المفردات : ﴿ **يقدر** ﴾ : يضيق كقوله ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾[1] أى ضيق والمراد أنه يعطيه بقدر كفايته ، لا يفضل عنه شيء . ﴿ **متاع** ﴾ : أى متعة قليلة لادوام لها ولابقاء . ﴿ **أناب** ﴾ : رجع عن العناد ، وأقبل على الحق ﴿ **تطمئن** ﴾ : أى تسكن وتخشع . ﴿ **طوبى لهم** ﴾ : أى لهم العيش الطيب وقرة العين والغبطة والسرور . ﴿ **والمآب** ﴾ : المرجع والمنقلب .

اعلم يا ابن آدم أنه لا يملك الرزق والروح إلا الله ، ولو ركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فم ابن آدم ، ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون * وفى السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[2] .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، أى يرزقه الكفاف ، والله اعلم بحكمته : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[3] .

ومن أصدق من الله حديثاً ؟ لا أحد .

ومن أصدق من الله قيلا ؟ لا أحد .

قل أأنتم أعلم أم الله ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

النفس تجزع أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يطغيها

وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع من فى الأرض لا يكفيها

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[4] .

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾[5] .

أما الكفار فقد فرحوا بما أوتوا فى الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالا ، كما قال : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[6] .

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين فى الدار الآخرة ، فقال ﴿ **وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع** ﴾ كما قال ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾[7] . وقال : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى ﴾[8] .

(١) الآية ٧ من سورة الطلاق .

(٢) الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة الذاريات .

(٣) الآية ١٤ من سورة الملك .

(٤) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٢٧ من سورة الشورى .

(٦) الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون .

(٧) الآية ٧٧ من سورة النساء .

(٨) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعلى .

وروى الإمام أحمد بسنده عن المستورد أخى بنى فهر ، قال : قال رسول الله ﷺ : (وما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم فلينظر بم ترجع ؟) وأشار بالسبابة)[١] رواه مسلم فى صحيحه .

وفى الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدى أسكَّ ميت . والأسك الصغير الأذن فقال (والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾ .

يخبر الله تعالى عما قاله الكافرون الجاحدون للصادق المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ﴿ **لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ . (ولولا) هنا حرف تحضيض هنا بمعنى (هلا) والتحضيض : هو القلب الذى فيه حث وإزعاج ، وقد أرادوا بالآية هنا الآية الحسية ، كما جاء بيان ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيتٌ من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾[٣] .

وفى الحديث : (إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً ، وأن يجرى لهم ينبوعاً ، وأن يزيح الجبال من حول مكة ، فيصير مكانها مروجاً وبساتين : إن شئت ما يحمد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ﴾[٤] .

ولهذا قال لرسوله : ﴿ **قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب** ﴾ أى هو المضل والهادى ، سواء بعث الرسل بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم ، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه .

كما قال : ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾[٥] وقال : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٦] وقال : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم

---

(١) أخرجه مسلم فى الجنة (٥٥) . والبخارى فى الرقاق (٢) . والترمذى فى الزهد (١٥) . وابن ماجه فى الزهد (٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ٢٢٩ ، ٢٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد (٢) . وأبو داود فى الطهارة (٧٣) . والإمام أحمد فى (٣ : ٣٦٥) .

(٣) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٢٤٢ ، ٣٤٥) .

(٥) الآية ١٠١ من سورة يونس .

(٦) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾[١] .

ولهذا قال : ﴿ **قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب** ﴾ : أى ويهدى إليه من أناب : إلى الله ، ورجع إليه ، واستعان به ، وتضرع لديه .

﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ : أى تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً ، ولهذا قال : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ .

واعلم بأن الهداية والإضلال لحكمة إلّهية عليا والله سبحانه وتعالى حكيم منزه عن العبث ، منزه عن الظلم بهذا نطق القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

والله جل شأنه يقول فى أهل الهداية : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى ﴾[٢] .

ويقول فى أهل الشقاق والضلال : ﴿ وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[٦] .

ويقول سبحانه : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾[٤] .

وقال جل شأنه ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾[٥] . وقال ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[٦] .

وجاء تقرير تلك الحقيقة فى قوله : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ [٧] .

وهؤلاء هم الذين أنابوا إلى الله ورجعوا ، قال تعالى ﴿ **ويهدى إليه من أناب** ﴾ ووصف أهل الإنابة بأنهم الذين آمنوا ، وتطمئن قلوبهم بذكر الله وليس الذكر كلمات تنبس بها الشفاه ، وتلوكها الألسنة ، إنما الذكر فى حقيقته إستحضار عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، ونعته بنعوت الجمال والجلال والكمال .

والذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ،

---

(١) الآية ١١١ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات ٥ – ٧ من سورة الليل .
(٣) الآيتان ٨ – ١٠ من سورة الليل .
(٤) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٥ من سورة الصف .
(٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٧) الآية ٥٦ من سورة القصص .

وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

ولا بد أن يقترن الذكر بالتفكر ، فالذكر بلا تفكر بعد عن المراد ، والتفكر بلا ذكر جفاء ، والذكر والتفكر ولاء ووفاء .

قال تعالى ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياًينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾[١] .

قال أحد الصالحين لمستمعيه : إذا ذكر الصالحون نزلت الرحمة . قال أحدهم : فمابالنا إذا ذكر الله ؟ فأطرق الشيخ ملياً ثم قال : إذا ذكر الله نزلت الطمأنينة ، أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

وهنا مقامان : مقام الوجل إذا ذكروا جلاله ، ومقام الطمأنينة إذا ذكروا رحمته الواسعة .

قال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكـر الله وجلت قلوبهم ﴾[٢] . أى خوفاً ورهباً من عقابه .

قال جل شأنه : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ طمعاً فى رحمته وإحسانه .

قوله تعالى ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾ .

ورد فى تفسير ﴿ **طوبى** ﴾ أقوال نذكر منها : أنها فرح ، وقرة عين ، وأنها غبطة لهم ، وأنها خير لهم ، وأنها شجرة فى الجنة .

قال الإمام أبو الهيثم عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً (طوبى شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها) .

وقال الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أن رجلا قال يارسول الله : طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال : (طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى)[٣] . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : (شجرة فى الجنة مسيرتها مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها)[٤] . وروى فى الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال :(إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلـها مائة عام لا يقطعها) .

(١) الآيات ١٩٠ – ١٩٥ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٢ من سورة الأنفال .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى (٣ : ٧١) وفى (٤ : ١٨٣ ، ١٨٤) .

وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ﴿ وظل ممدود ﴾[١] قال : (فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، فاقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ .

وقال أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : (إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين – أو مائة سنة – هى شجرة الخلد)[٢] .

وعن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ ذكر سدرة المنتهى فقال : (يسير فى ظل الغصن منها الراكب مائة سنة –أو قال – يستظل فى الفنن منها مائة راكب ، فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال)[٣] رواه الترمذى .

وعن أبى سلام الأسود قال سمعت أبا أمامة الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ : (ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى ، فتفتح له أكمامها فيأخذ من أىّ ذلك شاء ، إن شاء أبيض ، وإن شاء أحمر ، وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود ، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن) .

وسما من يقول فى حديثه القدسى الجليل : [ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر][٤] الحديث .

فهل هناك مرجع ومآل أحسن من هذا المرجع ، إن رجوع العبد الطائع إلى ربه كرجوع الطفل التائه إلى أحضان أمه ﴿ يأأيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ .

خاتم الأنبياء ليس بدعا من الرسل

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ

(١) الآية ٣٠ من سورة الواقعة .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٨) وفى تفسير (سورة ٥٦ : ١) وفى الرقاق (٥١) . ومسلم فى الجنة (٦ – ٨) . والترمذى فى الجنة (١) وفى تفسير (سورة : ٥٦ : ١ ، ٢) . وابن ماجه فى الزهد (٣٩) . والدرامى فى الرقاق (١١٤) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٥٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٨ ، ٤٣٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٨٧) وفى (٣ : ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٤) .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجنة فى الجنة (٩) .

(٤) أخرجه الترمذى فى القيامة (٤٨) .

يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

المفردات : ﴿ **خلت** ﴾ : مضت ، ﴿ **مآب** ﴾ : مرجعى . ﴿ **قطعت** ﴾ : شققت ، ﴿ **ييأس** ﴾ : يعلم وهو لغة هوازن قارعة رزية تقرع القلوب . ﴿ **أمليت** ﴾ : أى أمهلت مدة طويلة فى أمن ودعة ، ﴿ **قائم** ﴾ : رقيب ومتولٍّ للأمور ، ﴿ **تنبئونه** ﴾ : تخبرونه . ﴿ **بظاهر من القول** ﴾ : أى بباطل منه لا حقيقة له فى الواقع . ﴿ **والسبيل** ﴾ : هو سبيل الحق وطريقه ، ﴿ **والواق** ﴾ : الحافظ .

قوله تعالى : ﴿ **كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إلّه إلا هو عليه توكلت وإليه متاب** ﴾ :

هذه شهادة من الملك الحق ، بأن محمدا نبى حق ﴿ **كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم** ﴾ ، ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1] .

وجاء فى التوراة : (أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صنماً ، فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولكن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إلّه إلا الله ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفا)[2] .

وكما أرسلنلك يا محمد فى هذه الأمة ﴿ **لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك** ﴾ أى تبلغهم رسالة الله إليهم ، كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم ، فإن تكذيبهم اشد من تكذيب غيرك من المرسلين .

(١) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤٨ : ٣) وفى البيوع (٥٠) . والدرامى فى المقدمة (٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٧٤) .

قال الله تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾[١] الآية ، وقال تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٢] .

أى كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ **وهم يكفرون بالرحمن** ﴾ : أى هذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن ، لايقرون به ، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أى يكتبوا باسم الله الرحمن الرحيم ، وقالوا : ماندرى ماالرحمن الرحيم ؟ .

قاله قتادة والحديث فى صحيح البخارى .

وقد قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[٣] .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن)[٤] .

﴿ **قل هو ربى لا إلّه إلا هو** ﴾ : أى هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به . معترف مقر له بالربوبية والألوهية . هو ربى لا إلّه إلا هو ﴿ **عليه توكلت** ﴾ أى فى جميع أمورى ﴿ **وإليه متاب** ﴾ : أى إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه ، (وعزتى وجلالى لو سلكوا كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يامحمد) .

صلّت عليك ملائك الرحمن ... وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مزوداً ... بحمى الإلّه وراية القرآن

قوله تعالى ﴿ **ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ :

هذا إخبار عن عظمة القرآن وعلو منزلته : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾[٥] ، ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[٦] .

﴿ **ولو أن قرآناً سيرت به الجبال** ﴾ أى ولو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن

(١) الآية ٦٣ من سورة النحل .
(٢) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .
(٤) أخرجه مسلم فى الأدب (٢) . والبخارى فى الأدب (١٠٥ ، ١٠٦) . وابن ماجه فى الأدب (٣٠) . والترمذى فى الأدب (٦٤) . والدرامى فى الاستئذان (٢٠) .
(٥) الآية ٢١ من سورة الحشر .
(٦) الآية ٨٨ من سورة الأسراء .

أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى فى قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك ، لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له .

﴿ **بل لله الأمر جميعاً** ﴾ : أى مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ، ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ومن يضلل الله فلا هادى له ، ومن يهد الله فماله من مضل ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا** ﴾ أى أفلم يعلموا ويتبينوا أنه لو يشاء الله هداية الناس جميعاً لهداهم ، ولكنه سبحانه وهب الناس عقلا ، وأرسل إليهم رسلا ، وأنزل عليهم كتباً ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[١] ، ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾[٢] .

وليس هناك حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى العقول والنفوس من هذا القرآن ، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)[٣] .

ومعناه أن معجزة كل نبى انقرضت بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

قال صلى الله عليه وسلم : (كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[٤] .)[٥] .

وقد جاء فى سبب نزول هذه الآية ، مارواه ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منحاب بن الحارث أنبأنا بشر بن عمارة حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفى قال قلت له : ﴿ **ولو أن قرآناً سيرت به الجبال** ﴾ الآية قالوا لمحمد ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ :

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٩٩ من سورة يونس .

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن (١) . ومسلم فى الإيمان (٢٣٩) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٤١ ، ٤٥١) .

(٤) الآية ٥١ من سورة العنكبوت .

(٥) أخرجه الدرامى فى المقدمة (٤٢) .

أى بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا ، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا ، كما قال تعالى ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾[(١)] وقال ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾[(٢)] .

قال قتادة عن الحسن ﴿ **أو تحل قريباً من دارهم** ﴾ أى القارعة .

﴿ **حتى يأتى وعد الله** ﴾ أى ما وعد به المؤمنين من النصر المبين . قال تعالى : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[(٣)] .

وقد أنجز الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[(٤)] ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[(٥)] .
﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾[(٦)] .

الله تعالى إذا وعد وفى ، إن الله لا يخلف الميعاد ، فاعتبروا ياأولى الأبصار ، وأقيموا للقرآن مكانته اللائقة به ، فوالله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو تمسكنا به لرفرفت راية الإسلام على كل بلد .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب** ﴾ :

هذه عادة أهل الظلم والفسق مع المرسلين ، يقفون منهم موقف الاستهزاء والسخرية ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾[(٧)]

قال تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[(٨)] .

﴿ **فأمليت للذين كفروا** ﴾ : أى أمهلتهم ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر .

وفى الصحيحين : ﴿ إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴾[(٩)] ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[(١٠)].

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الأحقاف .
(٢) الآية ٤٤ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٦ من سورة الروم .
(٤) الآية ٢١ من سورة المجادلة .
(٥) الآية ٤٠ من سورة الحج .
(٦) الآيات ١ - ٣ من سورة الفتح .
(٧) الآيات ٢٩ - ٣٢ من سورة المطففين .
(٨) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٩) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة : ١١ : ٥) . وأخرجه مسلم فى البر (٦٢) . والترمذى فى التفسير (سورة ١١ : ٢) . وابن ماجه فى الفتن (٢٢) .
(١٠) الآية ١٠٢ من سورة هود .

﴿ **فكيف كان عقاب** ﴾ : أى بلغ عقابى به مبلغاً تذهب النفس فيه كل مذهب ، إن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

غداً توفى النفـــوس ما كسبت ويحصد الزارعـــون ما زرعـــوا
إن أحسنـــوا أحسنـــوا لأنفسهـــم وإن أســاءوا فبئس ما صنعـــوا

قوله تعالى : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لايعلم فى الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ :

هذه الآية فيها إثبات العظمة الإلٰهية ، والله تعالى هو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق ، هو الرقيب الأعلى ، والمهيمن الأعظم ، والقاهر فوق عباده ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[3] ، وقال : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾[4] ، وقال ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾[5] ، ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾[6] .

أفمن هو كذلك كالأصنام التى يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها ، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها !

وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه ، وهو قوله ﴿ **وجعلوا لله شركاء** ﴾ أى عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ، ﴿ **قل سموهم** ﴾ : أى أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم . ولهذا قال : ﴿ **أم تنبئونه بما لايعلم فى الأرض** ﴾ : أى لا وجود له ، لأنه لو كان لها وجود فى الأرض لعلمها ، لأنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ **أم بظاهر من القول** ﴾ : أى بباطل من القول ، أى إنما عبدتم هذه الأصنام ببطلان منكم أنها تنفع وتضر ، وسميتموها آلهة ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾[7] .

(١) الآية ٦١ من سورة يونس .
(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٦ من سورة هود .
(٤) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الرعد .
(٥) الآية ٧ من سورة طه .
(٦) الآية ٤ من سورة الحديد .
(٧) الآية ٢٣ من سورة النجم .

قال مجاهد قولهم : أى ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار ، كقوله تعالى ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ﴾[1] الآية .

﴿ **وصدوا عن السبيل** ﴾ من قرأها بفتح الصاد معناه أنه ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ، ولهذا قال : ﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ كما قال : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾[2] وقال : ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ومالهم من ناصرين ﴾[3] .

هؤلاء وأشياعهم لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك آتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[4] .

﴿ **ومالهم من الله من واق** ﴾ : أى ليس لهم من دون الله من يصيبهم عذابه ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال ﴾[5] ، ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير ﴾[6] .

حال الجنة وأحكام أخرى

* مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾

المفردات : ﴿ **مثل الجنة** ﴾ : صفتها العجيبة التى تشبه المثل فى غرابتها . ﴿ **الأحزاب** ﴾ : جمع حزب ويطلق على الطائفة المتحزبة المجتمعة لشأن من الشئون . ﴿ **مآب** ﴾ : مرجع . ﴿ **واق** ﴾ :

(1) الآية ٢٥ من سورة فصلت .
(2) الآية ٤١ من سورة المائدة .
(3) الآية ٣٧ من سورة النحل .
(4) الآيات ١٢٤ – ١٢٧ من سورة طه .
(5) الآية ١١ من سورة الرعد .
(6) الآية ٤٧ من سورة الشورى .

حافظ . ﴿ **أجل** ﴾ : الأجل المدة والوقت . ﴿ **كتاب** ﴾ : قيل هو الحكم المعين الذى يكتب على العباد حسب ما تقضيه الحكمة . ﴿ **أم الكتاب** ﴾ : علم الله .

هكذا ديدن القرآن إذا وصف النار وعذابها قضى على ذلك بذكر الجنة ونعيمها ﴿ واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً * قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً ﴾[1] إلى آخر الآيات من سورة الفرقان .

يريد الله تبارك وتعالى أن يمثل الغائب بما هو مشاهد معروف عندنا تقريباً للأفهام ، وتوجيهاً للأذهان ، وإلا فالجنة على حقيقتها شيء لا يدرك كنهه إلا بعد دخولها والتمتع بها إن شاء الله ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾[2] فى أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً ، ويوجهونها حيث أرادوا : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾[3] .

﴿ **أكلها دائم وظلها** ﴾ : فيها الفواكه والمطاعم والمشارب بلا انقطاع ولا فناء ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾[4] ، ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ﴾[5] .

﴿ **تلك عقبى الذين اتقوا** ﴾ : وهذا جزاؤهم ﴿ **وعقبى الكافرين النار** ﴾ وجزاؤهم ونهايتهم النار التى وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ، وهذا معنى من وصف الجنة والنار ، وغير ذلك مما نزل به القرآن ، الناس فيه على صنفين مصدق ومكذب .

﴿ **والذين آتيناهم الكتاب** ﴾ من اليهود والنصارى ، وهم قائمون بمقتضاه ، ومؤمنون حقاً بما فيه ﴿ **يفرحون بما أنزل إليك** ﴾ من القرآن ، لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به .

﴿ **ومن الأحزاب من ينكر بعضه** ﴾ : نعم كان من أهل الكتاب عبد الله بن سلام ، وتميم الدارى من المؤمنين الكاملين ، وبعضهم كان يتحزب على النبى ويؤلب عليه ككعب بن الأشرف وغيره من زعمائهم ورؤسائهم ينكرون بعض القرآن وهو مالم يوافق ما حرفوه من كتبهم وشرائعهم المغيرة .

وكيف تختلفون بين مصدق ومكذب ؟ وهناك أساس واحد هو الذى يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادة ، وهو ما أمر الله به نبيه ، فقال ﴿ **قل** ﴾ يامحمد ﴿ **إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به** ﴾ شيئاً ﴿ **إليه** ﴾ وحده ﴿ **أدعوا** ﴾ ، ﴿ **وإليه** ﴾ وحده ﴿ **مآب** ﴾ ومرجعى .

---

(١) الآيات ١١-١٥ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٧١ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٤) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة الواقعة .
(٥) الآية ١٤ من سورة الإنسان .

فهذا هو التوحيد الخالص الكامل ، وتلك الرسالة بإيجاز دعوة إلى الله فقط ، وطاعة وإخلاص وعبادة وآستعانة بالله وحده ، وأما المرجع والمآب والحساب والجزاء فإليه وحده أيضاً .

ومثل ذلك الإرسال للرسل قديماً أرسلناك يامحمد وأنزلنا عليك كتاباً هو القرآن ، وهو كتاب محكم الآيات ، فيه الحكم الحق ، والقول الفصل ، أنزلناه حكماً بلسان عربى مبين فكان مبيناً لمقاصده ، موضحاً لمراميه ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] .

﴿ **ولئن اتبعت** ﴾ يامحمد ﴿ **أهواءهم** ﴾ وآراءهم ﴿ **من بعد ما جاءك من العلم** ﴾ من الله سبحانه وتعالى فليس لك من دون الله ولى ولا ناصر وهذا وعيد وتهديد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من الوقوف على أسرار الشرع ، والالمام بالسنة النبوية والمحجة المحمدية

روى أن اليهود عابت الرسول بكثرة النساء ، وقالوا : لو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء .. وقد لحوا فى طلب الآيات كما تقدم ، فرد الله عليهم ليس محمد بدعاً من الرسل ، ولقد أرسلنا قبله رسلاً ، وكانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ويفعلون كل ما يفعله البشر ، ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ﴾[2] .

وصدق الله فهذا تسجيل فى القرآن لا يقبل شكاً ولا جدلا ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :
(أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى)[3] .

وأما الآيات المقترحة فتلك نعمة رددها القرآن ، ورد عليها كثيراً بما يفيد أن الرسول رسول فقط ، والآيات من عند الله ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله وأمره ، وقد جاءكم القرآن وكفى به معجزة خالدة باقية ثابتة على جهة التحدى والإفحام .

والآيات لاتأتى اعتباطاً ، ولكنها لحكمة ، وفى زمن الله يعلمه ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ أى لكل مدة مضروبة ، ووقت معلوم ، كتاب مكتوب ، وكل شىء عنده بمقدار ، وقيل المعنى لكل كتاب أجل ، أى لكل أمر كتبه الله أجل معين ووقت معلوم ، فليست هناك آية مقترحة بنازلة قبل أوانها ، ولا عذاب استعجلوه بنازل قبل أوانه ، فالآجال والأعمار والأرزاق والأحداث ، كل ذلك بقضاء الله وقدره ، له وقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[4] .

---

(١) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٢) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٣) أخرجه البخارى فى النكاح (١) . ومسلم فى النكاح (٥) . والنسائى فى النكاح (٤) . والدرامى فى النكاح (٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٥٨) وفى (٣ : ٢٤١) .

(٤) الآية ٤٩ من سورة يونس .

﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ من الأحداث الكونية والإنسانية ﴿ **ويثبت** ﴾ ما يشاء من هذا كله فى الخارج ﴿ **وعنده** ﴾ سبحانه ﴿ **أم الكتاب** ﴾ وهو اللوح المحفوظ ، أو علمه جل شأنه ثابت أزلا لا يتغير ولا يتبدل ، كل شىء على حسب علمه ووفق إرادته .

والمعنى يمحو ويثبت فى الخارج ما يشاء . وعلمه لا يتغير ولا يتبدل وهو موافق لما فى اللوح المحفوظ . ومظاهر المحو والإثبات نراها فى كل لحظة من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، ونور وظلام ، وحياة وموت ، وقوة وضعف ، وزرع وحصاد إلى آخر ما فى الأحداث الكونية ، هذا المحو والإثبات خاضع لعلمه القديم الذى لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى هذا فالآية رد أيضاً على اقتراحهم الآيات حيث كان المحو والإثبات خاضعاً لمشيئة الله ولقانونه الذى وضعه ، وهو لكلٍ أجلٌ محدود لا يتقدم ولا يتأخر .

وعد من الله الواحد المتصرف

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

المفردات : ﴿ **الأطراف** ﴾ : الجوانب . ﴿ **المعقب** ﴾ : الذى يكرّ على الشىء فيبطله ، ويقال لصاحب الحق معقّب ، لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء والطلب ، ﴿ **والمكر** ﴾ : إرادة المكروه فى خفية . ﴿ **وعقبى الدار** ﴾ : أى العاقبة الحميدة . ﴿ **والأم** ﴾أصل الشىء وما يجرى مجراه ، كأم الرأس للدماغ . وأم القرى لمكة .

قوله تعالى : ﴿ **وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك** ﴾ هذا وعد من الله تبارك وتعالى لرسوله الكريم ، ووعد الله واقع لا محالة ، فقد وعده أن يريه فى هؤلاء المعاندين بعض ما يصيبهم من الانتقام والجزاء ، هذا فى حياته ، فإن توفاه فإنهم لن يكونوا بمنأى من هذا العقاب ، فإن الوجود كله ملك الله والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، والله تعالى إذا وعد أنجز ، فإنما عليك البلاغ ، وتلك رسالة الأنبياء : بلاغ وإرشاد وتوجيه وتقويم ، وعلينا الحساب ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[1] ﴿ فذكر

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

إنما أنت مذكر * لست عليهم بمصيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب** ﴾ :

أولم ير هؤلاء المكذبون وينظرون ويشاهدوا آيات الله الواضحات ، وسننه الراسخات فى هذا الكوكب الأرضى ، فإنه تعالى يأتى الأرض من جوانبها فينقصها بانتشار الاسلام وتدمير الكفر ، قال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين • إنهم لهم المنصورون • وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[٢] .

وفى سورة الأنبياء يقول جل ذكره : ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾[٣] ويقول : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[٤] وقال تعالى فى سورة النور ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[٥] .

وذلكم حكم الله ﴿ **والله يحكم لا معقب لحكمه** ﴾ ولا راد لقضائه ﴿ **وهو سريع الحساب** ﴾ ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً ﴾[٦] .

والدنيا سرعان ما تمضى كسراب خادع ، أو حلم لاح لعينى ساهر ، وغداً حساب ولا عمل ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ **وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار** ﴾ :

هذا هو ديدن المكذبين الجاحدين : المكر والخداع . قال تعالى : ﴿ استكباراً فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾[٨] ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾[٩] .

والمكر من العبد تدبير السوء فى خفاء ، وعاقبته عند الله تدمير وانتقام ، قال تعالى ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾[١٠] .

---

(١) الآيات ٢١ - ٢٦ من سورة الغاشية .
(٢) الآيات ١٧١ - ١٧٣ من سورة الصافات .
(٣) الآية ٤٤ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية ٥٥ من سورة النور .
(٦) الآية ٨٤ من سورة مريم .
(٧) الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .
(٨) الآية ٤٣ من سورة فاطر .
(٩) الآية ٢٦ من سورة النحل .
(١٠) الآية ٥٠ من سورة النمل .

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾[١].

وقال جل شأنه : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[٢] ذلك لأن أحكامه جلّ شأنه كلها عادلة ، لا يُظلم عنده أحد .

ولنا فى تاريخ الأمم السابقة عبرة ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين • وبالليل أفلا تعقلون ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٥] .

فلا يكن فى صدرك حرج ﴿ ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ﴾[٦] فلله المكر جميعاً ، إذ إليه يرجع الأمر كله ، لايقع فى ملكه مالا يريده ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، هو الذى يعلم ما تكسب كل نفس ، فهو القائم على كل نفس بما كسبت ، المهيمن على مافى الضمير ﴿ فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾[٧] .

الله يدرى كل ما تضمرُ يعلم ما تخفى وما تظهرُ
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشرُ

وإن غداً لناظره قريب ، سيعلمون من الكذّاب الأشر ﴿ فستبصر ويبصرون • بأيكم المفتون ﴾[٨] .

وبعد أن يدخل أهل الحق الجنة ، ويدخل أهل الباطل النار ﴿ **سيعلم الكفار لمن عقبى الدار** ﴾ وعندئذ يُنادى : ياأهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت .

قوله تعالى : ﴿ **ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾ :

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن فقال له عليه السلام : (هل تجدنى فى الإنجيل رسولا ؟) قال : لا . فأنزل الله تعالى : ﴿ **ويقول الذين كفروا لست مرسلا** ﴾ .

أى ويقول الجاحدون لنبوتك ، الكافرون برسالتك ، لست رسولا من عند الله ، أرسلك لتخرج

---

(١) الآية ٥١ من سورة النمل .
(٢) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .
(٣) الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات .
(٤) الآية ٧٠ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٦) الآية ١٢٧ من سورة النحل .
(٧) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٨) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة القلم .

الناس من الظلمات إلى النور ، وتدعوهم إلى عبادة إلّه واحد لا شريك له ، وتنقذهم من عبادة الأصنام والأوثان ، وتصلح حال المجتمع البشرى ، وتمنع عنه الظلم والفساد .

﴿ **قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم** ﴾ أى حسبى أن يكون الله شاهداً برسالتى وصدق فيما أقول ، فهو الذى قال لى : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1] فقد أنزل علىَّ الكتاب والحكمة ، وقال فى محكم كتابه ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة ، يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾[2] .

وكذلك فإن الصادقين من أهل الكتاب : كعبد الله بن سلام وأمثاله من الذين آتاهم الله الكتاب فعرفوا مافيه . فإنهم أيضاً يشهدون بأننى نبى الله حقاً وصدقا بل إن عبد الله بن سلام كان يقسم ويقول : (والله إنى لأعرف أن محمداً رسول أكثر مما أعرف ابنى لأن محمداً نزل برسالته الأمين من السماء من قِبَل الحق تبارك وتعالى) .

فصلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله ، نشهد أنك بلَّغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، ومحوت الظلمة ، وجاهدت فى الله حق جهاده ، حتى أتاك اليقين ، فجزاك الله عنا خير ما جزى به نبياً عن أمته ، ورسولا عن قومه .

---

(١) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٦٦ من سورة النساء .

سورة إبراهيم

مقدمة

وتسمى سورة (**إبراهيم**) لتضمنها قصة إسكانه ولده إسماعيل بواد غير ذى ذرع ، وشكره لله تعالى على ما أنعم عليه من الولدين : إسماعيل وإسحاق .

مقصود السورة :

بيان حقيقة الإيمان ، وبرهان النبوة ، وأن الله تعالى أرسل كل رسول بلغة قومه ، وذكر الامتنان على بنى إسرائيل بنجاتهم من فرعون ، وأن القيام بشكر النعم يوجب المزيد ، وكفرانها يوجب الزوال ، وذكر معاملة القرون الماضية مع الأنبياء والرسل الغابرين ، وأمر الأنبياء بالتوكل على الله عند تهديد الكفار إياهم ، وبيان مذلة الكفار فى العذاب والعقوبة ، وبطلان أعمالهم ، وكمال إذلالهم فى القيامة ، وبيان جزعهم من العقوبة ، وإلزام الحجة عليهم ، وإحلال إبليس اللائمة عليهم ، وبيان سلامة أهل الجنة وكرامتهم ، وتشبيه الإيمان (والتوحيد بالشجرة الطيبة وهى النخلة ، وتمثيل الكفر بالشجرة الخبيثة وهى الحنطة ، وتثبيت أهل الإيمان) على كلمة الصواب عند سؤال منكر ونكير ، والشكوى من الكفار بكفران النعمة ، وأمر المؤمنين بإقامة الصلوات والعبادات ، وذكر المنة على المؤمنين بالنعم السابغات ، ودعائه إبراهيم بتأمين الحرم المكى ، وتسليمه إسماعيل إلى كرم الحق تعالى ولطفه ، وشكره لله على إعطائه الولد .

هى مكية ، وعدد آياتها اثنتان وخمسون ، وكلماتها ثمانمائة وإحدى وثلاثون ، وحروفها ستة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون .

والتهديد العظيم للظالمين بمذلتهم فى القيامة ، وذكر أن الكفار قرناء الشياطين فى العذاب .

والإشارة إلى أن القرآن أبلغ واعظ ، وذكرى للعقلاء فى قوله تعالى ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ إلى آخر السورة .

والسورة خالية عن المنسوخ فى قول ، وعند بعضهم ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ، ﴿ إن الله لغفور حليم ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **فليتوكل المؤمنون** ﴾ وبعده : ﴿ **فليتوكل المتوكلون** ﴾ : لأن الإيمان سابق على التوكل .

قوله : ﴿ **مما كسبوا على شىء** ﴾ : والقياس على شىء مما كسبوا كما فى البقرة ، لأن على من صلة القدرة ، ولأن ﴿ **مما كسبوا** ﴾ صفة لشىء . وإنما قدم فى هذه السورة ﴿ لأن ﴾ الكسب هو المقصود بالذكر ، وأن المثل ضرب للعمل ، يدل عليه قوله : ﴿ أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا

يقدرون مما كسبوا على شيء ﴾[١] .

قوله : ﴿ **وأنزل من السماء ماء** ﴾ . وفى النمل ﴿ وأنزل لكم من السماء ﴾[٢] بزيادة (لكم) لأن (لكم) فى هذه السورة مذكور فى آخر الآية ، فاكتفى بذكره ، ولم يكن فى النمل فى آخرها فذكر فى أولها ، وليس فى قوله : ﴿ ما كان لكم ﴾ يكفى من ذكره ، لأنه نفى لا يفيد معنى الأول .

قوله : ﴿ **فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ : قدم الأرض لأنها خلقت قبل السماء ؛ ولأن هذا الداعى فى الأرض .

وقدمت (الأرض) فى خمسة مواضع :

هنا : وفى آل عمران ، ويونس ، وطه والعنكبوت .

قوله : ﴿ **وليذكر أولوا الألباب** ﴾ : خص أولى الألباب ، لأن المراد فى الآية التذكر ، والتدبر والتفكر فى القرآن ، وإنما يتأتى ذلك منهم مثله فى البقرة : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾[٣] يريد فهم معانى القرآن ، ثم ختم الآية بقوله ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾

ومثلها فى آل عمران : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ﴾[٤] : وذكر فيه المحكمات والمتشابهات ، وختمها بقوله : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ .

ولا رابع لها فى القران .

ومناسبة هذه السورة بما قبلها من وجوه :

١ – ذكر سبحانه فى السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكماً عربياً ، ولم يصرح سبحانه بحكمة ذلك ، وصرح بها هنا .

٢ – أنه سبحانه ذكر فى السورة السابقة قوله : ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ﴾[٥] .

٣ – ذكر سبحانه وتعالى هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله ، وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه .

وهنا ذكر سبحانه وتعالى أن الرسل قالوا : ﴿ **ما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله** ﴾ .

٤ – اشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل ، واشتملت هذه على ذلك أيضاً .

٥ – ذكر سبحانه وتعالى هناك رفع السماء بغير عمد ، ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر ، وذكر هنا نحو ذلك .

٦ – ذكر سبحانه هناك مكر الكفار ، وذكر مثله هنا ، وذكر من وصفه مالم يذكر هناك .

---

(١) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .

(٢) الآية ٦٠ من سورة النمل .

(٣) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٧ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٣٨ من سورة الرعد .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد (١) الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد (٢) الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد (٣) وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم (٤) ﴾

المفردات : ﴿ **الظلمات** ﴾ : الضلالات . ﴿ **والنور** ﴾ : الهدى . ﴿ **وإذن ربهم** ﴾ : تيسيره وتوفيقه . ﴿ **العزيز** ﴾ : الغالب . ﴿ **الحميد** ﴾ : المحمود المثنى عليه بحمده لنفسه أزلاً ، وبحمد عباده له أبداً . ﴿ **ويل** ﴾ : هلاك . ﴿ **يستحبون** ﴾ : يختارون . ﴿ **سبيل الله** ﴾ : هو دينه الذى ارتضاه . ﴿ **يبغونها** ﴾ : يطلبونها . ﴿ **عوجاً** ﴾ : زيغاً واعوجاجاً . ﴿ **واللسان** ﴾ : اللغة .

افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة ببعض حروف الهجاء ، كما افتتح بعض السور . وهذه الحروف تشير إلى إعجاز هذا الكتاب الخالد ، فهى حروف عربية ، نزل بها الكتاب العربى ، وعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله : ﴿ قل لئن أجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[1] .

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك الهدف الأسمى والحكمة العظمى من إنزال هذا الكتاب على سيد ولد آدم صلوات ربى وسلامه عليه ، فقال : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ :

والظلمات هى طرق الضلال والزور والبهتان ، وما أكثرها .. أما النور فهو طريق الإيمان ، وبالإيمان يتحقق الخير كله ، لذا بُعث النبى (ﷺ) ليوحد العقائد لا ليفرق القواعد ، وجاء بشرع هو للشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، وللشعوب البدائية كالوالد الرحيم .

فاعجب معى لأمة يقول كتابها ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[2] ويقول عن نبيها : ﴿ قد

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٣٥ من سورة النور .

جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[١] ويقول عن قرآنها : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾[٢] .

فأمة ربها نور ، ونبيها نور ، وكتابها نور ؛ كيف ترضى لنفسها أن تعيش فى غياهب الظلمات .

لقد بعث النبى العظيم بهذا الكتاب الكريم ليخرج الناس من غياهب الظلمات وفلول الدجى ، وحضيض الغبراء ، إلى نورالهدى وباذخ الغلياء ، ويسمو بهم من كثافة المادة إلى لطافة الروح ، ويُخرج من شاء الله من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعد الدنيا والآخرة ، ومن مدارج النمال فى مدابّها إلى مسابح الأفلاك فى أبراجها .

نعم ﴿ قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٣] .

إن إخراج الناس من الظلمات إلى النور هو الهداية ، والهداية نعمة لا تدانيها نعمة ، والله صاحب الأنعام والكرم ييسر طريق الهدى بإذنه وتوفيقه وعونه ، لذا قال جلَّ شأنه ﴿ **بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ .

فالعزيز هو الغالب الذى لا يُقهر ، والحميد هو المستحق للحمد والثناء الجميل فلا يُذم أبداً إن الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين بيَّن الله تعالى صفاتهم فى قوله : ﴿ **الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة** ﴾ أى يؤثرونها ويفضلونها .

كما قال تعالى : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[٤] .

وكما قال جلَّ شأنه : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾[٥] .

وكما قال جلَّ شأنه : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾[٦] .

ويل لهؤلاء الكافرين من عذاب شديد الألم ، يقول فيهم مولانا (إن الذين كفروا بآياتنا سوف

(١) الآية ١٥ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٨ من سورة التغابن .
(٣) الآيتان ٢٥٦ ، ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٤) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة يونس .
(٥) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة هود .
(٦) الآية ١٨ من سورة الإسراء .

نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[١] .

فياله من خطب ما أهوله وياله من يوم ما أطوله ، وياله من جبار ما أعدله ، إن هؤلاء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، كما أخبرنا عنهم خالق الأكوان : يصدون عن سبيل الله ، فأضافوا بذلك ضلالا إلى ضلال ، وجرماً إلى جرم . قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيداً . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً ، وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[٢] .

وماذا يريد هؤلاء بالصد عن سبيل الله ؟ إنهم يبغونها عوجاً وهى سبيل مستقيمة لا اعوجاج فيها ولا التواء ، قال فيها النبى ﷺ : (لقد جئتكم بها بيضاء نقية) .

نعم إنها المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، إنه صراط الله المستقيم : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[٣] .

إن هؤلاء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وصدوا غيرهم عن سبيل الله ، وأرادوها عوجاً ، حكم الله عليهم بقوله : ﴿ **أولئك فى ضلال بعيد** ﴾ وأى ضلال أشد نكراً من هذا الضلال ؟ .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهَّاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم** ﴾ :

هذا تيسير من الله تعالى على عباده ولطف بهم ، ومن رحمته العظمى أن يرسل كل رسول بلغة قومه حتى يبين لهم ما أرسل به إليهم ، وقد كانت دعوات الأنبياء قبل رسول الله ﷺ خاصة بأقوامهم . روى الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر قال : قال رسول الله (ﷺ) : ﴿ لم يبعث الله عز وجلَّ نبياً إلا بلغة قومه ﴾[٥] .

أما رسالة نبينا ﷺ فهى عامة دائمة إلى يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾[٦] ، وقال تعالى : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾[٧] ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ تبارك الذى نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾[٨]، وقال عز من قائل ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٩] .

---

(١) الآية ٥٦ من سورة النساء .
(٢) الآيات ١٦٧ - ١٦٩ من سورة النساء .
(٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٤) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة آل عمران .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ١٥٨) .
(٦) الآية ٢٨ من سورة سبأ .
(٧) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٨) الآية الأولى من سورةالفرقان .
(٩) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

جاء فى الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصةوبعثت إلى الناس عامة)[١] .

قوله تعالى : ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ :

هذا لحكمة بالغة فقد أرسل الله إلى عباده رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وأنزل كتباً يبين فيها أحكامه ، ويفصل مناهجه ، ووهب العباد عقولا يميزون بها بين الخبيث والطيب ، والحلال والحرام ، والهدى والضلال . ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى . فسنيسره للعسرى ﴾[٢] ، قال تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾[٣] .

وهو العزيز الذى لا يقهر ولا يغلب ، بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، الحكيم المنزه عن العبث ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته .

موسى عليه السلام وقومه

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ **الآيات** ﴾ : هى الآيات التسع التى أجراها الله على يده عليه السلام . ﴿ **والظلمات** ﴾ : الكفر والجهالات . ﴿ **والنور** ﴾ : الإيمان بالله وتوحيده وجميع ما أمروا به .

(١) أخرجه البخارى فى التيمم (١) وفى الصلاة (٥٦) وفى الجهاد (١٢٢) وفى التعبير (١١) وفى الأعتصام (١) . ومسلم فى المساجد (٣ ، ٥ – ٨) . والترمذى فى السير (٥) . والنسائى فى الغسل (٢٦) وفى الجهاد (١) . والدارمى فى السير (٢٩) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٠١٢٩٨) وفى (٢ : ٢٢٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣١٤ ، ٣٩٦ ، ٤١٢ ، ٤٥٥ ، ٥٠١) .

(٢) الآيات ٥ – ١٠ من سورة الليل.

(٣) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة البقرة .

﴿ **وذكرهم** ﴾ : أى عظهم . ﴿ **وأيام الله** ﴾ : وقائعه فى الأمم السابقة ، ويقال فلان عليم بأيام العرب : أى بحروبها وملاحمها كيوم ذى قار ، ويوم الفجار . ﴿ **والصبار** ﴾ : كثير الصبر . ﴿ **والشكور** ﴾ : كثير الشكر . ﴿ **يسومونكم** ﴾ : يكلفونكم (بلاء) أى ابتلاء واختبار . ﴿ **وتأذن** ﴾ : أى آذن وأعلم ، ﴿ **وحميد** ﴾ : مستوجب للحمد ذاته وإن لم يحمده أحد .

من حكمة الله تعالى أن أرسل إلى الأمم أنبياء ، يدعونهم إلى الله على بصيرة ، وكان ختامهم محمداً ﷺ ، الذى بعثه بقرآن كالشمس وضحاها ، وسنة كالقمر إذا تلاها ، فمن عمل بها عاش فى ضوء النهار إذا جلاها ، ومن أعرض عنها تخبط فى ظلمة الليل إذا يغشاها .

ومن هؤلاء المرسلين الذين أرسلهم الله موسى كليم الله . قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ إلى قومه أى بنى إسرائيل ، والمراد بالآيات المعجزات التى قال الله فيها : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾[1] .

وقال الله له : ﴿ **أخرج قومك من الظلمات إلى النور** ﴾ .

أى من ظلمات الضلال والغواية إلى نور الحق والهداية .

﴿ **وذكرهم بأيام الله** ﴾ إما أن يكون المراد بالأيام نعم الله عليهم ، فقد أنجاهم من آل فرعون ، كما جاوز بهم البحر ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وإما أن يكون المراد بأيام الله وقائعه فى الأمم السابقة ، مثل قوم نوح وعاد وثمود . ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبَّار شكور** ﴾ أى كثير الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء . وهذه حال المؤمن .

قال قتادة : « نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ، وإذا أعطى شكر » .

وكذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن أمر المؤمن كله عجب لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له)[2] .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ :

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ، ونعمه عليهم ، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ، ويتركون إناثهم ، فأنقذهم الله من ذلك ، وهذه نعمة عظيمة ، ولهذا قال ﴿ **وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ أى نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها ، وقيل وفيما كان يصنعه

(١) الآية ١٠١ من سورة الإسراء .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد (٦٤) . والإمام أحمد فى (٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣) وفى (٦ : ١٥) .

بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل (بلاء) أى اختبار عظيم ، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا ، والله أعلم .

كقوله تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾[(١)] .

وقوله : ﴿ **وإذ تأذن ربكم** ﴾ :

أى آذنكم وأعلمكم بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإذا أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه ، كقوله تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾[(٢)] .

وقوله ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ : أى لئن شكرتم نعمتى عليكم لأزيدنكم منها ﴿ **ولئن كفرتم** ﴾ : أى كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿ **إن عذابى لشديد** ﴾ . وذلك يسلبها عنهم ، وعقابه إياهم على كفرها .

وقد جاء فى الحديث : ﴿ إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ﴾ .

وفى المسند أن رسول الله ﷺ (مر به سائل فأعطاه تمرة فتسخطها ولم يقبلها ، ثم مر به آخر فأعطاه إياها فقبلها ، وقال : تمرة من رسول الله ﷺ فأمر له أربعين درهماً) .

أو كما قال الإمام أحمد عن أنس قال : (أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها . أو وحش بها . قال : وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقال : سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ ، فقال للجارية : (اذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التى عندها) . تفرد به الإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد** ﴾ :

لا يضر الله تعالى كفر أهل الأرض جميعاً ، فإنه الغنى بذاته ، القوى العزيز الجبار ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد . ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾[(٣)] ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾[(٤)] .

فهو الغنى عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره ، كقوله : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ﴾[(٥)] الآية ، وقوله ﴿ فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾[(٦)] .

---

(١) الآية ١٦٨ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٦٧ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١١٦ من سورة التوبة .
(٤) الآية ١٧ من سورة المائدة .
(٥) الآية ٧ من سورة الزمر .
(٦) الآية ٦ من سورة التغابن .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : (يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك من ملكى شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر)[1] .

فسبحانه وتعالى ، الغنى الحميد .

خذوا العبرة ممن كانوا قبلكم

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

المفردات : ﴿ **الريبة** ﴾ : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر . ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ : أى موجدها على نظام بديع . ﴿ **والسلطان** ﴾ : الحجة والبرهان .

الظاهر – والله أعلم – أن هذا كلام مستأنف ، وكثيراً ما يذكرنا الله تعالى بمثل هذه الأنباء عن قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات .

﴿ **جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ : أى بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات .

قوله تعالى : ﴿ **فردوا أيديهم فى أفواههم** ﴾ : فيها أقوال للمفسرين :

---

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) والترمذى فى القيامة (٤٨) . وابن ماجه فى الزهد (٣٠) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٥٤ ، ١٧٧) .

قيل معناه : أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم ، لما دعوهم إلى الله عز وجل . وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم . وقيل : بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل .

وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة : معناه أنهم كذبوهم ، وردوا عليهم قولهم بأفواههم .

وعن عبد الله فى قوله : ﴿ **فردوا أيديهم فى أفواههم** ﴾ قال : عضوا عليها غيظاً .

وقال العوفى عن ابن عباس لما سمعوا كلام الله عجبوا ، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ، وقالوا ﴿ **إنا كفرنا بما أرسلتم به** ﴾الآية . يقولون لا نصدقكم فيما جئتم به ، فإن عندنا فيه شكا قوياً .

قوله تعالى : ﴿ **قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون * ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ .

سبحانك ربى يا خالق الأكوان ، يا مبدع الإنسان ، يا من أنزلت القرآن لينطق بالحكمة وفصل الخطاب .

قالت الرسل لقومهم ﴿ **أفى الله شك فاطر السموات والأرض** ﴾ : سموات ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، وكون قام على الإتقان والترابط ، والنظام والعناية ، والقصد والإرادة .

الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثارِ
من شك فيه فنظرة فى خلقهِ تمحو أثيم الشك والإنكارِ

وهذا حوار بين الرسل وأقوامهم ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لاشريك له ، قالت الرسل : ﴿ **أفى الله شك** ﴾ :

وهذا يحتمل شيئين **أحدهما** : أفى وجوده شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار ، فتحتاج إلى النظر فى الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه : ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ الذى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة عليهما ، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شىء ، وإلاهه ومليكه .

والمعنى **الثانى** فى قولهم : ﴿ **أفى الله شك** ﴾ : أى فى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو

الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بوجوده ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم ، أو تقربهم من الله زلفى .

وقالت لهم رسلهم : ﴿ **يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ : أى فى الدار الآخرة ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ أى فى الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾[1] .

فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول ، وحاصل ماقالوه : ﴿ **إن أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ : أى كيف نتبعكم بمجرد قولكم ، ولما نر منكم معجزة ﴿ **فأتونا بسلطان مبين** ﴾ أى خارق نقترحه عليكم .

﴿ **قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم** ﴾ :

أى صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ﴿ **ولكن الله يمن على من يشاء من عباده** ﴾ أى بالرسالة والنبوة ﴿ **وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان** ﴾ على وفق ما سألتم ﴿ **إلا بإذن الله** ﴾ أى بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا فى ذلك .

﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ . أى فى جميع أمورهم .

ثم قالت الرسل : ﴿ **ومالنا أن لا نتوكل إلا على الله** ﴾ أى وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ **ولنصبرن على ماآذيتمونا** ﴾ : أى من الكلام السيىء ، والأفعال السخيفة ﴿ **وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ .

وخاب كل جبار عنيد

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

المفردات : ﴿ **لتعودن** ﴾ : لتصيرن . ﴿ **الملة** ﴾ : الدين والشريعة . ﴿ **المقام** ﴾ : موقف الحساب . ﴿ **استفتحوا** ﴾ : أى طلبوا الفتح بالنصرة . على الأعداء . ﴿ **خاب** ﴾ : هلك . ﴿ **الجبار** ﴾ : العاتى المتكبر على طاعة الله . ﴿ **العنيد** ﴾ : المعاند للحق المخالف له . ﴿ **من ورائه** ﴾ :

(١) الآية ٣ من سورة هود .

أى من بعد ذلك ينتظره . ﴿ **والصديد** ﴾ : ما يسيل من جلود أهل النار . ﴿ **يسيغه** ﴾ : أى يستطيبه يقال ساغ الشراب : إذا جاز الحلق بسهولة . ﴿ **يأتيه الموت** ﴾ : أى تأتيه أسبابه وتحيط به من كل جهة . ﴿ **عذاب غليظ** ﴾ : أى شديد غير منقطع .

وهكذا انتقل الحوار بين الكافرين ورسلهم إلى مجال الوعيد والتهديد ، وظنوا أنهم قادرون على تنفيذ ما يهددون به ، ونسوا أوتناسوا أن للكون إلهاً بيده الأمر كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وأن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، ولاتطرف فيه طرفة عين ، ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذن الله ، ولله ملك السموات والأرض ، وما بينهما يخلق ما يشاء ، سبحانه خشعت الأصوات لعظمته ، وعنت الوجوه لقدرته ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، ومن آياته أن تقوم السموات والأرض بأمره ، وهو الذى يحيى العظام وهى رميم .

﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا** ﴾ .

هنا يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم ،والنفى من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾(١) وكما قال قوم لوط : ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾(٢) .

وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾(٤) .

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره ، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً ، يقاتلون فى سبيل الله تعالى ، ولم يزل يرقيه تعالى من شىء إلى شىء حتى فتح له مكة التى أخرجته ، ومكن له فيها ، وأرغم أنوف أعدائهم منهم من سائر أهل الأرض ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى أيسر زمان .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم** ﴾ كما قال : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾(٦) ، وقال تعالى : ﴿ولقد كتبنا فى

(١) الآية ٨٨ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٥٦ من سورة النمل .
(٣) الآية ٧٦ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .
(٥) الآيات ١٧١ - ١٧٣ من سورة الصافات
(٦) الآية ٢١ من سورة المجادلة .

الزبور من بعد الذكر ﴾[١] ، ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ : أى وعيدى هذا لمن خاف مقامى بين يدى يوم القيامة ، وخشى من وعيدى ، وهو تخويفى وعذابى .

كما قال تعالى : ﴿ فأما من طغى • وآثر الحياة الدنيا • فإن الجحيم هى المأوى • وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فإن الجنة هى المأوى ﴾[٤] ، وقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾[٥] .

وقوله : ﴿ **واستفتحوا** ﴾ : أى استنصرت الرسل ربها على قومها ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٦] .

ويحتمل أن يكون هذا مراداً ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر وقال تعالى للمشركين : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خيرلكم ﴾[٧] .

﴿ **وخاب كل جبار عنيد** ﴾ : أى متجبر فى نفسه ، عنيد معاند للحق ، كقوله تعالى : ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد • مناع للخير معتدٍ مريب • الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد ﴾[٨] .

وفى الحديث (أنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادى الخلائق فتقول : إنى وكلت بكل جبار عنيد . خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء فى الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر ﴾[٩] .

وقوله : ﴿ **من ورائه جهنم** ﴾ : وراء هنا بمعنى أمام ، كقوله تعالى ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾[١٠] وكان أمامهم ملك ، أى من وراء الجبار العنيد جهنم ، أى هى له بالمرصاد ، يسكنها مخلداً يوم المعاد ، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد .

(١) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .
(٤) الآيات ٣٧ – ٤١ من سورة النازعات .
(٥) الآية ٤٦ من سورة الرحمن .
(٦) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٧) الآية ١٩ من سورة الأنفال .
(٨) الآيات ٢٤ – ٢٦ من سورة ق .
(٩) أخرجه الترمذى فى جهنم (١) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٣٦) وفى (٣ : ٤٠) وفى (٦ : ١١٠) .
(١٠) الآية ٧٩ من سورة الكهف .

﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ : أى فى النار ليس له من شراب إلا من حميم وغساق فهذا حار فى غاية الحرارة ، وهذا بارد فى غاية البرد والنتن ، كما قال : ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج ﴾[(١)] .

وقال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم . قال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده .

﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ : قال النبى ﷺ يقرب إليه فينكره فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره .

يقول الله تعالى ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾[(٢)] .

ويقول : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾[(٣)] . ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ : أى يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه .

وقال ابن جرير ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ : أى من أمامه وخلفه ، وفى رواية : وعن يمينه وشماله ، ومن فوقه ، ومن تحت أرجله ، ومن سائر أعضاء جسده .

وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ قال : أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم ، ليس فيها نوع إلا يأتيه الموت فيه لو كان يموت ، ولكن لا يموت ، لأن الله تعالى قال ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾[(٤)] .

ومعنى كلام ابن عباس : أنه مامن نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه . لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ليخلد فى دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ .

وقوله ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ : أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ ، أى مؤلم صعب شديد ، أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمرّ ، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم ﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾[(٥)] .

فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم ، وتارة فى شرب حميم ، وتارة يردون إلى جحيم ، عياذاً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى ﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون • يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾[(٦)] .

وقال تعالى : ﴿ إن شجرت الزقوم • طعام الأثيم • كالمهل يغلى فى البطون • كغلى الحميم • خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم • ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم • ذق إنك أنت العزيز الكريم • إن هذا

---

(١) الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من ص .
(٢) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٤) الآية ٣٦ من سورة فاطر .
(٥) الآيات ٦٤ — ٦٨ من سورة الصافات .
(٦) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الرحمن .

ما كنتم به تمترون ﴾[1] .

وقال : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم ﴾[2] وقال تعالى ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب . جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج ﴾[3] . ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[4] .

أعمال الكافرين

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

بعد أن ذكر سبحانه ما سيلاقيه الكافرون فى هذا اليوم العصيب من سائر أنواع العذاب التى سلف وصفها ، بين هنا أن ما عملوه فى الدنيا من صالح الأعمال لا يجديهم فتيلا ولا قطميرا ، فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الريح فى يوم عاصف ، فذهبت به فى كل ناحية ، فهم لا يجدون من أعمالهم فيه شيئاً ، ثم بين أن ذلك اليوم آت لا ريب فيه ، فإن من أنشأ السموات والأرض بلا معين ولا ظهير قادر على أن يفنيهم ويأتى بخلق جديد ، وليس ذلك بعزيز ، ولا بممتنع عليه .

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد أشتدت به الريح فى يوم عاصف ﴾ :

أى ما مثل أعمال الكافرين التى كانوا يعملونها فى الدنيا ، ويزعمون أنها تنفعهم يوم الجزاء ، إلا كمثل رماد حملته الريح وأسرعت الذهاب به فى يوم عاصف ، فنسفته ولم تبق له أثراً ، فهم يوم القيامة لا يجدون منها شيئاً ينفعهم عند الله فينجيهم من عذابه ، إذ لم يكونوا يعملونها لله خالصة ، بل كانوا يشركون فيها الأصنام والأوثان .

والمراد من تلك الأعمال أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف ، ونحو ذلك .

ثم أكد نفى فائدتها لهم إذ ذاك فقال : **﴿ لا يقدرون مما كسبوا على شىء ﴾ :**

أى لا يقدرون يوم القيامة على شىء من أعمالهم فى الدنيا ، فلا يرون لها أثراً من ثواب ، أو تخفيف عذاب ، كما لا تنتفع بالرماد إذا أرسل عليه الريح فى يوم عاصف .

(١) الآيات ٤٣ – ٥٠ من سورة الدخان .
(٢) الآيات ٤١ – ٤٤ من سورة الواقعة .
(٣) الآيات ٥٥ – ٥٨ من سورة ص .
(٤) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾[1] ، وقال : ﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾[2] .

وورد فى الصحيح عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت : (يارسول الله إن ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعة ؟ قال : لا ينفعه لأنه لم يقل : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين) .

﴿ **ذلك هو الضلال البعيد** ﴾ : أى ذلك السعى والعمل على غير أساس ولا استقامة ، حتى فقدوا ثوابهم منه أحوج ما كانوا إليه ، هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب .

ثم ذكر دليل وحدانيته فقال : ﴿ **ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ :

أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله أنشأ السموات والأرض بالحكمة ، وعلى الوجه الصحيح الذى يحق أن يخلقا عليه ، ومن قدر على خلقها على أتم نظام ، وأحكم وضع بلا معين ولا ظهير ، فهو قادر على أن يفنيكم ويأتى بخلق جديد سواكم ، وما ذلك بممتنع ، ولا متعذر عليه .

تبرؤ إبليس من أتباعه

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ **وبرزوا** ﴾ أى صاروا بالبراز وهى الأرض المتسعة ، ويراد بها مجتمع الناس فى ذلك اليوم . ﴿ **والضعفاء** ﴾ : واحدهم ضعيف ويراد به ضعيف الرأى والفكر . ﴿ **والذين**

(١) الآية ٢٣ من سورة الفرقان . (٢) الآية ١١٧ من سورة آل عمران .

﴿استكبروا﴾ : هم رؤساءهم الذين استنفروهم . ﴿والتبع﴾ : واحدهم تابع لخادم وخدم . ﴿مغنون﴾ : أى دافعون . ﴿محيص﴾ : أى منجى ومهرب . ﴿السلطان﴾ : التسلط . ﴿بمصرخكم﴾ : أى بمغيثكم . يقال : استصرخنى فأصرخته أى استغاث فأغثته .

بعد أن ذكر سبحانه مايلقاه الأشقياء فى ذلك اليوم من العذاب ، وذكر أن أعمالهم الطيبة التى كانت فى الدنيا أحبطت فلم تغن عنهم شيئاً ، ذكر هنا محاورة بين الأتباع المستضعفين والرؤساء المتبوعين ، وما يحدث فى ذلك الوقت من الخجل لهم ، ثم أردفها مناظرة وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس ، وبعد ذلك ذكر أحوال الأشقياء وبالغ فى بيانها ، وتفصيلها ، شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم ، والأجر الجزيل .

﴿وبرزوا لله جميعاً﴾ : أى برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار . أى اجتمعت فى براز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحداً .

﴿فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً﴾ : أى فقال الأتباع لقادتهم وسادتهم ، الذين استكبروا عن عبادة الله وحده ، وعن اتباع قول الرسل : إنا كنا تابعين لكم ، تأمروننا فنأتمر ، وتنهوننا فننتهى .

﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء﴾ : أى فهل تدفعون عنا اليوم شيئاً من ذلك العذاب ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا .

وقد حكى الله رد أولئك السادة عليهم :

﴿قالوا لو هدانا الله لهديناكم﴾ : أى لو أرشدنا الله تعالى ، وأضاء لنا أنوار بصائرنا ، وأفاض علينا من توفيقه ومعونته ، لأرشدناكم ودعوناكم إلى سبل الهدى ، ووجهنا أنظاركم إلى طريق الخير والفلاح ، ولكنه لم يهدنا فضللنا السبيل ، فأضللناكم .

ولما كان هذا القول منهم إمارة الجزع قالوا :

﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص﴾ أى ليس لنا من مهرب ولا خلاص عما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا .

وخلاصة ذلك : سيان الجزع والصبر فلا نجاة لنا من عذاب الله .

وفى مثل الآية قوله : ﴿وإذ يتحاجّون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار • قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾[1] .

وقوله : ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا • ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾[2] .

(١) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة غافر .

(٢) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة الأحزاب .

ولما ذكر سبحانه المناظرة التى ستكون بين الأتباع والرؤساء أردفها المناظرة التى ستكون بين الشيطان وأتباعه حينئذ فقال :

﴿ **وقال الشيطان لما قضى الأمر** ﴾ :

أى وقال إبليس مخاطباً أتباعه من الإنس بعد أن حكم الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين فراديس الجنات ، وأسكن الكافرين سحيق الدركات .

﴿ **إن الله وعدكم وعد الحق** ﴾ : أى أن الله وعدكم على ألسنة رسله بالبعث ، وجزاء كل عامل على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ووعده حق ، وخبره صدق .

﴿ **ووعدتكم فأخلفتكم** ﴾ : أى ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ، ولا حشر ولا حساب ، ولئن كانا فنعم الشفيع لكم الأصنام والأوثان ، فأخلفتكم موعدى ، إذ لم أقل إلا بهرجاً من القول وباطلا منه ، فاتبعتمونى وتركتم وعد ربكم ، وهو وليكم ومالك أمركم .

ونحو الآية قوله ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾[١] . (وما كان لى عليكم من سلطان) أى وما كان لى قوة وتسلط تجعلنى ألجئكم إلى متابعتى على الكفر والمعاصى .

﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ : أى ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلال بوسوستى وتزيينى أسرعتم إلى إجابتى ، واتبعتم شهوات النفوس ، وأطعتم الهوى ، وخضتم فى مسالك الردى .

﴿ **فلا تلومونى ولوموا أنفسكم** ﴾ : لأنه ما كان منى إلا الدعاء ، وإلقاء الوسوسة ، ولوموا أنفسكم إذ استجبتم لى باختياركم الذى نشأ عن سوء استعدادكم ، بلا حق منى ولا برهان ، بل بتزيينى وتسويلى ، ولم تستجيبوا لربكم وقد دعاكم دعوة الحق المقرونة بالحجج والبينات .

﴿ **ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى** ﴾ : أى ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب فأزيل صراخكم ، وما أنتم بمغيثى مما أنا فيه من العذاب والنكال .

﴿ **إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل** ﴾ : أى أنى جحدت اليوم أن أكون شريكاً لله فيما أشركتمونى فيه من قبل هذا اليوم ، أى فى الدنيا ، وهذا كقوله ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾[٢] .

ومعنى كفره بإشراكهم تبرؤه منه واستنكاره له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾[٣] .

﴿ **إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ : أى قال إبليس ذلك قطعاً لأطماع الكفار من الإغاثة والنجاة من العذاب ، وإنما حكى الله ذلك عنه تنبيهاً للسامعين ، وحضاً لهم على النظر فى عاقبة أمرهم ،

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة النساء . (٢) الآية ١٤ من سورة فاطر . (٣) الآية ٤ من سورة الممتحنة .

والاستعداد لذلك اليوم الذى يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم ، ويتذكروا هول ذلك الموقف ورهبته .

ولما جمع سبحانه فريقى السعداء والأشقياء فى قوله ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾[١] .

وبالغ فى وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة .

ذكر حال السعداء وما أعد لهم من نعيم مقيم فى ذلك اليوم ، فقال : ﴿ **وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ .

أى وأدخل الذين صدقوا الله ورسوله ، فأقروا بوحدانيته تعالى ، ورسالة رسله وعملوا بطاعته فانتهوا إلى أمره ونهيه بساتين ، تجرى من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً ، لا يتحولون عنها ولا يزولون فيها .

﴿ **بإذن ربهم** ﴾ : أى بتوفيقه تعالى ، إذ وجه نفوسهم فى الدنيا تكسب الخيرات والميل إلى العمل بما يرضيه ويرضى رسوله ، وأنار بصائرهم للاعتقاد بأن يوم الجزاء آت لا ريب فيه ، فأعدوا له العدة فكان على الله بمقتضى وعده أن يدخلهم جناته كفاء ما جدُّوا فى رضاه ، ونصبوا فى طاعته خوفاً من هول ذلك اليوم العصيب .

﴿ **تحيتهم فيها سلام** ﴾ : أى تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم ، تعظيماً لشأنهم ، وعناية بأمرهم ، وجاء فى هذا المعنى قوله تعالى ، فى وصف دخولهم الجنة ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾[٢] وقوله ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾[٣] . وقوله : ﴿ ويلقون فيها تحية وسلاماً ﴾ كما يحييهم ربهم جلت قدرته ، إظهاراً لرضاه عنهم ، وإجلالا وإكباراً لهم ، كما قال : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾[٤] .

مثل الكلمة الطيبة والخبيثة

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

---

(١) الآية ٢١ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ٧٣ من سورة الزمر .
(٣) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد .
(٤) الآية ٥٨ من سورة يس .

المفردات : ﴿ **المثل** ﴾ : قول فى شيء يشبه بقول فى شيء آخر لما بينهما من المشابهة ويوضح الأولى بالثانية ، ليتم انكشاف حاله به . ﴿ **ثابت** ﴾ : أى ضارب بعروقه فى الأرض . ﴿ **فى السماء** ﴾ : أى جهة العلو . ﴿ **تؤتى أكلها** ﴾ : أى تعطى ثمرها . ﴿ **بإذن ربها** ﴾ : أى بإرادة خالقها . ﴿ **اجتثت** ﴾ : أى استؤصلت وأخذت جثتها . ﴿ **والقرار** ﴾ : الاستقرار . ﴿ **القول الثابت** ﴾ : أى الذى ثبت عندهم وتمكن فى قلوبهم .

وينتقل بنا النظم الكريم بزحفه المقدس إلى ضرب الأمثال ، وقد قالوا « بالمثال يتضح المقال » .

فيضرب الله مثلا لقول (لا إلّه إلا الله) وهى الكلمة الطيبة ، كما أنها الكلمة العليا فى قوله تعالى ﴿ وكلمة الله هى العليا ﴾[١] كما أنها كلمة التقوى فى قوله تعالى ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾[٢] .

ولقد ضرب الله تعالى مثلا لكلمة التوحيد بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وقد دلت الآثار على أن تلك الشجرة هى النخلة .

قال البخارى بسنده عن ابن عمر قال : « كنا عند رسول الله ﷺ فقال : (أخبرونى عن شجرة تشبه – أو – كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » قال ابن عمر : فوقع فى نفسى أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم . فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ : هى (النخلة) فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة . قال ما منعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً . قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا »[٣] .

إن كلمة التوحيد ثابتة فى قلب المؤمن كثبات تلك النخلة الضاربة بجذورها فى أعماق الأرض ، وقد أخبر بعض خبراء الزراعة أن جذور النخلة فى الأعماق يعدل طولها فوق الأرض ، وهذا يدل على مدى تمكنها فى الأعماق ، إنها مع ثباتها تراها قد امتدت فروعها فى جو السماء .

وبين النخلة والمسلم وجوه شبه كثيرة ، فالنخلة كلها خير : فى ثمارها وما فى الثمار من نوى وفى أوراقها وجريدها ولوفها وجذعها ، كذلك المسلم كله خير يفتح قلبه لعباد الله ويمشى فى قضاء حوائجهم ، ويعفو عن مسيئهم ، ويصبر على ظلمهم ، ويحلم عند إساءتهم ، بل إن شدة الجهالة لا تزيده إلا حلماً ، فهو مع الناس كالشجر ، يرمونه بالحجر فيرميهم بأحلى الثمر .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة التوبة . (٢) الآية ٢٦ من سورة الفتح .

(٣) أخرجه البخارى فى العلم (٤ ، ٥ ، ١٥ ، ٥٠) وفى البيوع (٩٤) وفى الأطعمة (٤٢) وفى الأدب (٨٩) . وأخرجه مسلم فى المنافقين (٦١ ، ٦٢) . والترمذى فى الأدب (٧٩ ، ٨٩) وفى تفسير (سورة ١٤ : ١) والإمام أحمد فى (٢ : ١٢ ، ٣ ، ٦١ ، ١٢٣ ، ١٥٧) .

كذلك كلمة التوحيد كلها خير تفتح أبواب السماء ، فالله سبحانه وتعالى إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن قتادة ؛ قال : إن رجلا قال : (يارسول الله : ذهب أهل الدثور بالأجور فقال : « أرأيت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء ، أفلا أخبرك بعمل أصله فى الأرض وفرعه فى السماء » قال : ما هو يارسول الله ؟ قال : « تقول لا إلّه إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله عشر مرات فى دبر كل صلاة فذاك أصله فى الأرض وفرعه فى السماء »)

قوله تعالى : ﴿ **تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾ أى تعطى ثمارها لينتفع بها الخلق ، فهى معطاءة دائماً ، وهذا هو سر التعبير بـ (تؤتى) ولم يقل « تثمر أكلها كل حين » كذلك المؤمن سخى جواد كريم ، له فى كل وقت أعمال صالحة طيبة .

إن هذه الشجرة قد أحاطها الله تعالى بالرعاية والعناية والصيانة ، فهى تؤتى أكلها بإذن ربها ، وهذا مثل طيب من أمثلة القرآن التى جاءت فى أعلى طبقات البلاغة ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ .

والذكرى تنفع المؤمنين ، وطوبى ثم طوبى للذين يتذكرون إذا ضربت الأمثال : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار** ﴾ :

هذا مثل ضربه الله تعالى لكلمة الكفر التى لا خير فيها ، كما لا خير فى أهلها ، إنها خبيثة مظلمة مرة المذاق كشجرة الحنظل ، كذلك أهل الكفر ، قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، إن تلك القلوب المظلمة ﴿ فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بَعْضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور ﴾[3] .

إن هذه الشجرة الخبيثة لا قرار لها ولا استقرار . لقد استؤصلت من فوق الأرض ولا جذور لها فى الأعماق ، والكفر كذلك خواء وجُفاء ، إنه كالزبد الذى لا خير فيه ، وإنها كرءوس التماثيل يشخشخ فيها الهواء .

قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾ :

دلت الآثار على أن هذه الآية عند سؤال القبر ، وكذلك الثواب والعقاب الذى يجرى على الناس ،

---

(١) الآية ٢١ من سورة الحشر . (٢) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت . (٣) الآية ٤٠ من سورة النور .

والذى يرتبط بالأعمال ، فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾(١) .

فالذين ماتوا على التوحيد وثبتوا على كلمته يثبتهم الله عند السؤال ، أما الظالمون فإنهم أهل ضلال وإفك وبهتان ، فيضلهم الله جزاء بما كانوا يعملون ، ولله تعالى مشيئة وإرادة وعلم ، يفعل ما يشاء بحكمته ، ويحكم ما يريد بقدرته .

روى البخارى بسنده عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : (المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إلٓه إلا الله وأن محمداً رسول الله)(٢) فذلك قوله ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ .

وروى الإمام أحمد بسنده عن البراء بن عازب قال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفى يده عود ينكث به فى الأرض فرفع رأسه فقال (استعيذوا بالله من عذاب القبر) مرتين أو ثلاثاً .

ثم قال : (إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان .

قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإن أخذها لم يدعوها فى طرف يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها يعنى على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله أكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال : فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسان فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربى الله . فيقولان ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة .

قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤٤ : ١) .

طيب الريح فيقول أبشر بالذى كنت يسرك . هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح ، فجلسوا منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجى إلى سخط من الله وغضب .

قال : فتفرق فى جسده فينتزعه كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهذه ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) فيقول الله أكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً . ثم قرأ ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[1] فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى ، فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول : ومن أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة)[2] .

قال سفيان الثورى عن أبيه عن خيثمة عن البراء فى قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ قال : عذاب القبر .

وقال المسعودى عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال : (إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره فيقال له : ما ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيثبته الله فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد ﷺ) ، وقرأ عبد الله ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ .

روى الإمام مسلم بسنده عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : (إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما

---

(١) الآية ٣١ من سورة الحج .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب (١٢٠) . وأبو داود فى الجنائز (١٧) . والترمذى فى الجنائز (٨١) . وابن ماجه فى الجنائز (١٧ ، ٣٧) .

كنت تقول فى هذا الرجل ؟ قال فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله قال فيقال له انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة)[(١)] قال النبى ﷺ (فيراهما جميعاً) . قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً ويملأ عليه خضراً إلى يوم القيامة .

وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتانى القبر فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاءه ملك شديد الانتهار فيقول له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ـــ؟ فأما المؤمن فيقول إنه رسول الله ﷺ وعبده فيقول له الملك : أنظر إلى مقعدك الذى كان لك فى النار قد أنجاك الله منه وأبدلك بمقعدك الذى ترى من الجنة فيراهما كليهما ، فيقول المؤمن دعونى أبشر أهلى فيقول له اسكن ، وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول لا أدرى أقول كما يقول الناس فيقال له لا دريت هذا مقعدك الذى كان لك فى الجنة قد أبدلت مكانه مقعدك من النار) قال جابر : فسمعت النبى ﷺ يقول : (يبعث كل عبد فى القبر على مامات ، المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه)[(٢)] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان . قال فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال فلان . فيقولون مرحباً بالروح الطيبة كانت فى الجسد ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان – قال – فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى بها الله عز وجل) .

(وإذا كان الرجل السوء قالوا أخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث أخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال فلان ، فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح) فيقال له مثل ماقيل فى الحديث الأول ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له فى الحديث الأول .

وقال ابن حبان فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون أخرجى إلى روح الله فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما هذه الريح الطيبة التى جاءت من قبل

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٦٧ ، ٨٦) . ومسلم فى فضائل الصحابة (٧٨) . والنسائى فى الجنائز (١٠٩ ، ١٠١) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤ ، ٢٣٣) وفى (٤ : ٢٩٦) وفى (٢ : ١١٨) .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٨٣) .

الأرض ، ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم فيقولون ما فعل فلان فيقولون دعوه حتى يستريح فإنه كان فى غم فيقول قد مات أما أتاكم فيقولون ذهب به إلى أمة الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجى إلى غضب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض)[1] .

وقال ابن جرير بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (والذى نفسى بيده إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولوا عنه مدبرين فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلى مدخل فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة ما قبلى مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصوم ما قبلى مدخل فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات ما قبلى مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك فيقول دعنى حتى أصلى فيقال له إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك فيقول وعم تسألونى ؟ فيقال أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول أمحمد ؟ فيقال له نعم فيقول أشهد أنه رسول الله وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه فيقال له على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعليه تبعث إن شاء الله ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له أنظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ثم تجعل نسمته فى النسم الطيب وهى طيب خضر يعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب) وذلك قول الله ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ .

وروى البزار عن أبى هريرة قال : (إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين فيود لو خرجت يعنى نفسه والله يحب لقاءه ، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض فإذا قال : تركت فلاناً فى الأرض أعجبهم ذلك وإذا قال : إن فلاناً قد مات قالوا : ما جىء به إلينا ؟

إن المؤمن يجلس فى قبره فيسأل من ربك فيقول : ربى الله ويسأل من نبيك فيقول : محمد نبيى فيقال : ما دينك ؟ قال دينى الإسلام فيفتح له باب قبره فيقول : - أو يقال - انظر إلى مجلسك ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعاين ما عاين فإنه لا يحب روحه أبداً والله يبغض لقاءه ، فإذا جلس فى قبره أو أجلس فيقال له : من ربك ؟ فيقول : لا أدرى فيقال : لا دريت . فيفتح له باب إلى جهنم ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة إلا الثقلين ثم يقال له نم كما ينام النهوش) قلت لأبى هريرة : ما المنهوش ؟ قال الذى تنهشه الدواب والحيات (ثم يضيق عليه قبره) .

عن محمد بن المنكدر قال : (كانت أسماء - يعنى بنت الصديق رضى الله عنها - تحدث عن النبى ﷺ قالت : قال : (إذا دخل الإنسان قبره ، فان كان مؤمناً حف به عمله الصلاة والصيام ، قال :

(١) أخرجه النسائى فى الجنائز (٩) . والإمام أحمد فى (٤ : ٢٨٨) .

فيناديه : اجلس فيجلس فيقول له : ماذا تقول فى هذا الرجل يعنى النبى ﷺ ؟ قال : من ؟ قال : محمد . قال : أشهد أنه رسول الله . قال وما يدريك أدركته ؟ قال : أشهد أنه رسول الله . قال : يقول على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث .

وإن كان فاجراً أو كافراً جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يرده فأجلسه فيقول له : ماذا تقول فى هذا الرجل ؟ قال : أى رجل ؟ قال : محمد ؟ قال يقول والله ما أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، قال له الملك . على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث قال ويسلط عليه دابة فى قبره معها سوط ثمرته جمرة مثل عرف البعير تضربه ما شاء الله صماء لا تسمع صوته فترحمه) .

وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية قال : (إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة ، فإذا مات مشوا مع جنازته ، ثم صلوا عليه مع الناس ، فإذا دفن أجلس فى قبره فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله . فيقال له : من رسولك ؟ فيقول : محمد ﷺ . فيقال له ما شهادتك ؟ فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فيوسع له فى قبره مد بصره .

وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم – والبسط هو الضرب ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ [(١)] عند الموت فإذا أدخل قبره أقعد فقيل له : من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه الله ذكر ذلك وإذا قيل من الرسول الذى بعث إليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع اليهم شيئاً) ﴿ **كذلك يضل الله الظالمين** ﴾ :

وقال ابن أبى حاتم عن أبى قتادة الأنصارى فى قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ .

قال : إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله فيقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد بن عبد الله . فيقال له ذلك مرات ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال : انظر إلى منزلك من النار لو زغت ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له : انظر إلى منزلك من الجنة إذا ثبت .

وإذا مات الكافر أجلس فى قبره فيقال له : من ربك ؟ من نبيك فيقول : لا أدرى ، كنت أسمع الناس يقولون . فيقال له : لا دريت ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له : انظر إلى منزلك إذا ثبت ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له انظر إلى منزلك إذا زغت) فذلك قوله تعالى ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ .

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى فى كتابه (نوادر الأصول) حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن نافع عن أبن أبى فديك عن عبد الرحمن بن عبد الله عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال :

(١) الآية ٢٧ من سورة محمد .

خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى مسجد المدينة ، فقال : (رأيت البارحة عجباً ، رايت رجلا من أمتى جاءه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه بره بوالديه فرد عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك .

ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم .

ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه .

ورأيت رجلا من أمتى والنبيون قعود حلقاً حلقاً كلما دنا لحلقه طردوه فجاء اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى .

ورأيت رجلا من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور .

ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت يامعشر المؤمنين : كلموه فكلموه .

ورأيت رجلاً من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت له صدقته ستراً على وجهه وظلا على رأسه .

ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم ، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة .

ورأيت رجلا من أمتى جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب ، فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل .

ورأيت رجلا من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته فجعلها فى يمينه .

ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه .

ورأيت رجلا من أمتى قائماً على شفير جهنم فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى .

ورأيت رجلا من أمتى هوى فى النار فجاءته دموعه التى بكى من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار .

ورأيت رجلا من أمتى قائماً على الصراط المستقيم يرعد كما ترتعد السعفه فجاء حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى .

ورأيت رجلا من أمتى على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً فجاءته صلاته على فأخذت بيده

فأقامته ومضى على الصراط .

ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى باب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إلّه إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة) .

وقال القرطبى بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه : هذا حديث عظيم ، ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجى من أهوال خاصة ، أورده هكذا فى كتابه (التذكرة) .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن تميم الدارى عن النبى ﷺ قال : يقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق إلى ولى فأتنى به فانى قد ضربته بالسراء والضراء ، فوجدته حيث أحب ، ائتنى به فلأريحنه . فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضبائر الريحان ، أصل الريحانة واحد وفى رأسها عشرون لوناً ، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر فيجلس ملك الموت عند رأسه ، وتحف به الملائكة ، ويضع كل منهم يده على عضو من أعضائه ، ويبسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ، فإن نفسه لتعلل عند ذلك بطرف الجنة ء تارة بأزواجها ، وتارة بكسوتها ، ومرة بثمارها ، كما يعلل الصبى أهله إذا بكى . قال : وإن أزواجه يبتهشن عند ذلك ابتهاشاً . قال وتبرز الروح .

قال البرسانى : يريد أن تخرج من العجل إلى ما تحب .

قال : ويقول ملك الموت اخرجى يا أيتها الروح الطيبة إلى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب . قال : ولملك الموت أشد به لطفاً من الوالدة بولدها ، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه فهو يلتمس بلطفه تحبباً لديه ، رضاء للرب عنه ، فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين) .

قال : وقال الله عز وجل ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾[1] وقال : ﴿ فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم ﴾[2] .

قال : روح من جهة الموت ، وريحان يتلقى به ، وجنة نعيم تقابله .

قال : فإذا قبض ملك الموت روحه قالت الروح للجسد : جزاك الله عنى خيراً ، فقد كنت سريعاً بى إلى طاعة الله ، بطيئاً بى عن معصية الله ، فقد نجيت وأنجيت . قال : ويقول الجسد للروح مثل ذلك .

قال : وتبكى عليه بقاع الأرض التى كان يطيع الله فيها ، وكل باب من السماء يصعد منه عمله وينزل منه رزقه . أربعين ليلة .

قال فإذا قبض ملك الموت روحه أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده ، فلا يقلبه بنو آدم

(١) الآية ٣٢ من سورة النحل . (٢) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة الواقعة .

لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بنى آدم ، وحنوط قبل حنوط بنى آدم ، ويقوم من باب بيته إلى قبره صفان من الملائكة يستقبلونه بالاستغفار ، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع منها عظام جسده ، قال : ويقول لجنوده الويل لكم ، كيف خلص هذا العبد منكم ؟ فيقولون : إن هذا كان عبداً معصوماً .

قال : فإذا صعد ملك الموت بروحه يستقبله جبريل فى سبعين ألفاً من الملائكة كل يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه ، قال : فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش خر الروح ساجداً . قال : يقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب .

قال فإذا وضع فى قبره جاءته الصلاة فكانت عن يمينه ، وجاءه الصيام فكان عن يساره ، وجاءه القرآن فكان عند رأسه ، وجاءه مشيه إلى الصلاه فكان عند رجليه ، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر . قال : فيبعث الله عز وجل عتقا من العذاب . قالوا : فيأتيه عن يمينه قال : فتقول الصلاة وراءك والله مازال دائباً عمره كله ، وإنما استراح الآن حين وضع فى قبره . قال : فيأتيه عن يساره فيقول الصيام مثل ذلك ، قال : ثم يأتيه من عند رأسه فيقول القرآن والذكر مثل ذلك ، قال : ثم يأتيه من عند رجليه فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك ، فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد إليه مصاغاً إلا وجد ولى الله قد أخذ جنته . قال : فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج .

قال : ويقول الصبر لسائر الأعمال أما إنه لم يمنعنى أن أباشر أنا بنفسى إلا أنى نظرت ما عندكم ، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه ، فأما إذا أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان .

قال ويبعث الله ملكين : أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنيابهما كالصياصى وأنفاسهما كاللهب ، يطآن فى أشعارهما بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا ، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما منكر ونكير ، وفى يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها . قال : فيقولان له : اجلس . قال : فيجلس فيستوى جالساً . قال : وتقع أكفانه فى حقويه . قال : فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ قال : قالوا يارسول الله ومن يطيق الكلام عند ذلك ، وأنت تصف من الملكين ما تصف ؟ .

قال : فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾ .

قال : فيقول : ربى الله وحده لا شريك له ، ودينى الإسلام الذى دانت به الملائكة ، ونبيى محمد خاتم النبيين . قال : فيقولان له : صدقت . قال : فيدفعان القبر فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعاً ، وعن يمينه أربعين ذراعاً ، وعن شماله أربعين ذراعاً ، ومن خلفه أربعين ذراعاً ، ومن عند رأسه أربعين ذراعاً ، ومن عند رجليه أربعين ذراعاً . قال : فيوسعان له مائتى ذراع .

قال البرسانى : فأحسبه وأربعين ذراعاً تحاط به .

قال : ثم يقولان له : أنظر فوقك ، فإذا باب مفتوح إلي الجنة قال : فيقولان له : ولى الله هذا منزلك إذا أطعت الله .

فقال رسول الله ﷺ (والذى نفس محمد بيده إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً) .

ثم يقال له : أنظر تحتك . قال : فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار ، قال : فيقولان : ولى الله نجوت . آخر ماعليك .

قال : فقال رسول الله ﷺ : (إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً) .

قال : قالت عائشة يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة ، يأتيه ريحها وبردها حتى يبعثه الله عز وجل) .

وبالاسناد المتقدم إلى النبى ﷺ قال : ويقول الله تعالى لملك الموت : انطلق إلى عدوى فأتنى به فإنى قد بسطت له رزقى ، ويسرت له نعمتى ، فأبى إلا معصيتى ، فأتنى به لأنتقم منه . قال : فينطلق إليه ملك الموت فى أكره صورة رآها أحد من الناس قط ، له أثنتا عشرة عيناً ، ومعه سفود من النار كثير الشوك ،ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجمر من جمر جهنم . ومعهم سياط من نار لينها لين السياط ، وهى نار تتأجج .

قال : فيضربه به ملك الموت بذلك السفود خربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود فى أصل كل شعرة وعرق وظفر .

قال : ثم يلويه لياً شديداً . قال : فينزع روحه من أظفار قدميه . قال فيلقيها فى عقبيه قال : فيسكر عدو الله عن ذكر سكره ، فيرفه ملك الموت عنه . قال : وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط . قال : فيشده ملك الموت شدة فينزع روحه من عقبيه ، فيلقيها فى ركبتيه ، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه . قال : فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط . قال : ثم ينثره ملك الموت نثرة فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها فى حقويه ، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه . قال : فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط . قال : كذلك إلى صدره ، ثم كذلك إلى حلقه .

قال : ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه ، قال : ويقول ملك الموت اخرجى أيتها الروح اللعينة إلى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم . قال : فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد : جزاك الله عنى شراً فقد كنت سريعاً بى إلى معصية الله ، بطيئاً بى عن طاعة الله ، فقد هلكت وأهلكت . قال ويقول الجسد للروح مثل ذلك ، وتلعنه بقاع الأرض التى كان يعصى الله عليها .

وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من ولد آدم النار .

قال : فإذا وضع فى قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، حتى تدخل اليمنى فى اليسرى ، واليسرى فى اليمنى .قال : ويبعث الله إليه أفاعى دهماً كأعناق الإبل ، يأخذن بأذنيه وإبهام قدميه ، فيقرضنه حتى يلتقين فى وسطه . قال ويبعث إليه ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنيابهما كالصياصى ، وأنفاسهما كاللهب ، يطآن فى أشعارهما بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا ، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة . يقال لهما منكر ونكير ، فى يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم تعلوها . قال : فيقولان له : إجلس . فيستوى جالساً . وتقع أكفانه فى حقويه . قال : فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدرى . فيقولان له : لادريت ولا تكيت . فيضربانه ضربة يتطاير شررها فى قبره ، ثم يعودان . قال : فيقولان : انظر فوقك فينظر فإذا باب مفتوح من الجنة فيقولان : عدو الله هذا منزلك لو أطعت الله . قال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً) . قال : ويقولان له : انظر تحتك ، فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار فيقولان : عدو الله هذا منزلك إذ عصيت الله قال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً) .

وقالت عائشة : ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار ، يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها) .

جـزاء الكافـرين

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾

المفردات : ﴿ **البوار** ﴾ : الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور كما قال تعالى ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾[1] . ﴿ **يصلونها** ﴾ : يقاسون حرها . ﴿ **والأنداد** ﴾ : واحدهم ندّ ، وهو المثل والشبيه . ﴿ **والمصير** ﴾ : المرجع . ﴿ **والبيع** ﴾ : الفدية . ﴿ **والخلال** ﴾ : المخالّة والصداقة .

بعد أن ضرب عز اسمه الأمثال بياناً لحالى الفريقين ، وذكر ما يلهمه من التوفيق فى الدارين للسعداء ، وما ينال الأشقياء من الخذلان والإضلال ، جزاء ما كسبت أيديهم من تَدْسِيَتِهم لأنفسهم باجتراحهم للشرور والآثام ، وبين أن كل ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة .

ذكر هنا الأسباب التى أوصلتهم إلى سوء العاقبة محجّباً رسوله مما صنعوا من الأباطيل التى لا تكاد

(١) الآية ١٢ من سورة الفتح .

تصدر ممن له حظ من الفكر والنظر ، ولم تكن هذه الطامة حقيقى بهم ، بل كانت فتنة لهم شعواء عمتهم جميعاً ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾[1] .

ذاك أنهم بدلوا نعمة الله كفراً ، والشكر جحداً وإنكاراً ، وليت البلّية كانت واحدة بل أضافوا إليها أخرى فاتخذوا لله الأنداد والشركاء ، ثم ثلّثوا بإضلال غيرهم ، فكانوا دعاة الكفر ، وأعوان الفتنة . ومن ثم كانت عاقبتهم التى لا مرد لها العذاب الأليم فى جهنم وبئس المصير ؛ ثم بين لرسوله أن مثل هؤلاء لا تجدى فيهم العظة فذرهم يتمتعوا فى هذه الحياة حتى حين ، ثم لابد لهم من النصيب المحتوم .

وبعد أن أمر الكافرين على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع بنعم الدنيا ، أمر عباده المؤمنين بعدم المغالاة فى التمتع بها ، والجد فى مجاهدة النفس والهوى ، ببذل النفس والمال فى كل ما يرفع شأنهم ، ويقربهم من ربهم ، وينيلهم الفوز فى يوم لا تنفع فيه ندية ولا صداقة ولا خلة : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[2] .

أخرج عطاء عن ابن عباس أن هؤلاء هم كفار مكة .

وأخرج الحاكم وابن جرير والطبرانى وغيرهم عن على أنه قال فى هؤلاء المبدّلين : « هم الأفجران من قريش : بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين » .

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ :

ولقد عدد سبحانه الأسباب التى أوقعت هؤلاء الأشقياء ومن شايعهم فى سوء المنقلب ، وحصرها فى ثلاثة :

(١) ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً** ﴾ : أى ألم تعلم وتعجب من قوم بدلوا شكر النعمة غمطاً لها وجحوداً لها ، كأهل مكة الذين أسكنهم الله حرما آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء ، وجعلهم قوام بيته ، وشرفهم بإرسال رسوله محمد ﷺ من بينهم ، فكفروا بتلك النعمة فأصابهم الجدب والقحط سبع سنين دأباً ، وأسروا يوم بدر وصفدوا فى السلاسل والأغلال ، وقتل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم ممن كانوا يضنون بهم ، ويحتفظون بمواضعهم « ليوم كريهة وسداد ثغر » .

وقوله تعالى : ﴿ **وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ : أى وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك الذى لا هلاك بعده ، ثم بين هذه الدار فقال سبحانه :

﴿ **جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾ : أى هذه الدار هى جهنم دار العذاب التى يقاسون حر نارها ، وبئس المستقر هى لمن أراد الله به النكال والوبال .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال .

(٢) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء .

(٢) ﴿ **وجعلوا لله أنداداً** ﴾ : أى واتخذوا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى ليس كمثله شيء – أنداداً وشركاء من الأصنام والأوثان ، أشركوهم به فى العبادة ، كما قالوا فى الحج : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وماملك .

(٣) ﴿ **ليضلوا عن سبيله** ﴾ : أى لتكون عاقبة أمر الذين شايعوهم على ضلالهم البعد والإعراض عن سبيله القويم ، ودينه الحنيف ، والوقوع فى حمأة الكفر والضلال .

ولما حكى الله عنهم هذه الهنات الثلاث ، تبديل النعمة ، واتخاذ الأنداد والأمثال ، وإضلال قومهم ، أمر نبيه أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد : سيروا على ما أنتم عليه ، فإنه لا فائدة فى نصحكم وإرشادكم والعاقبة النار .

﴿ **قل تمتعوا** ﴾ : أى تمتعوا بما أنتم فيه سادرون مما سيؤدى بكم إلى مهاوى الهلاك من الكفران وعبادة الأوثان والأصنام فى إضلال الناس والصد عن سبيل الله .

ثم بين جزاءهم المحتوم فقال : ﴿ **فإن مصيركم إلى النار** ﴾ : أى إن مرجعكم وموئلكم إليها ، كما قال ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[1] وسمى الله تعالى ذلك تمتعاً ، لأنهم تلذذوا به ، وأحسوا بغبطة وسرور كما يتلذذون بالمشتهيات من النعم .

وهذا الأسلوب التهكمى يستعمل فى التخاطب كثيراً فترى الطبيب يأمر مريضة بالاحتماء من بعض ما يضره ويؤذيه ، ثم لا يرى منه إلا تمادياً فى الإعراض عن أوامره ، واتباعاً لشهواته ، فيقول له : كل ما تريد ، فإن مصيرك إلى الموت ، ومامراده من ذلك إلا التهديد ليرتدع ويقبل ما يقول . وكما يقال لمن سعى من مخالفة السلطان : اصنع ما شئت ، فإن مصيرك إلى السيف .

وبعد أن هدد الكفار على انغماسهم فى اللذات ، أمر نبيه ﷺ أن يأمر خُص عباده بإقامة العبادات البدنية ، وأداء الفرائض المالية ، فقال سبحانه :

﴿ **قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم** ﴾ :

أى قل لهم : أقيموا الصلاة على وجهها ، وأدوها كما طلب ربكم ، فهى عماد الدين ، وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى المصباح للمؤمن ، يستضىء به للقرب من ربه ، وأدوا الزكاة شكراً على نعمه الجزيلة ، رأفة بعباده الفقراء ، سداً لخلتهم ، وإيجاداً للتضامن والتعاون بين الإخوة فى الدين : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[2] .

﴿ **سراً وعلانية** ﴾ : أى أنفقوا ذلك فى السر والعلن ، ولكل منهما حال تستحب فيها ، وقد تقدم القول فى تفصيل ذلك .

﴿ **من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ .

---

(١) الآية ٢٤ من سورة لقمان . (٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات .

أى من قبل أن يأتى اليوم الذى لا تنفع فيه فدية ، ولا تجدى فيه صداقة ، فلا يشفع خليل لخليل ، ولا يُصفح عن عقابه لمخالفته لصديقه ،بل هناك العدل والقسط كما قال : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ وقال : ﴿ أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾[٢] .

الآيات الدالة على التوحيد

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

المفردات : ﴿ **السماء** ﴾ : السحاب ، وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء . ﴿ **والرزق** ﴾ : كل ما ينتفع به ، ﴿ **والتسخير** ﴾ : التيسير والإعداد . ﴿ **والفلك** ﴾ : السفن ، ﴿ **دائبين** ﴾ : أى دائمين فى الحركة لا يفتران ، يقال دأب فى العمل إذا سار فيه على عادة مطردة كما قال : ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾[٣] . ﴿ **آتاكم** ﴾ : أى أعطاكم . ﴿ **لا تحصوها** ﴾ : لاتطيقوا حصرها ، والإحصاء : العد بالحصى ، وكان العرب يعتمدونه فى العد كاعتمادنا فيه على الأصابع . ﴿ **ظلوم** ﴾ : أى لنفسه بإغفال شكر النعمة . ﴿ **كفار** ﴾ : شديد الكفران والجحود لها .

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الكافرين لنعمه ، حين بدلوا الشكر بالكفر ، واتخذوا لله أنداداً ، فكان جزاؤهم جهنم وبئس المهاد ، ثم أمر بإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة ، شكراً لربهم على ما أوتوا من النعم ، وحثا لهم على الجهاد فى سبيل كالهم ورقيهم . ببذل النفس والنفيس وهو المال ، لتكمل لهم السعادة فى الدارين ، شرع يذكر الأدلة المنصوبة فى الآفاق والأنفس التى توجب على عباده المثابرة على شكره ، ودوام الطاعة له ، ويذكر النعم الجسام التى يتقلبون فى أعطافها آناء الليل وأطراف النهار ، ليكون فى ذلك حث لهم على التدبر فيما يأتون وفيما يذرون ، وفيه عظيم الدلالة على وجوب شكر الصانع لها ، كما فيه أشد التقريع للكافرين الذين أعرضوا عن النظر والتفكر فى تلك النعم ، فكان هذا داعية كفرها وجحودها ، وغمطها وكفورها .

قوله تعالى : ﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض** ﴾ :

أى الله الذى خلق لكم السموات والأرض ، هما أكبر خلقاً منكم ، وفيهما من المنافع لكم

(١) الآية ١٥ من سورة الحديد . (٢) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة . (٣) الآية ٤٧ من سورة يوسف .

ما تعلمون ومالا تعلمون ، وتقدم تفصيل هذا فى مواضع متعددة من كتابه الكريم . ﴿ **وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ :

أى وأنزل من السماء غيثاً أحيا به الشجر والزرع ، فأثمرت لكم رزقاً تأكلون منه ، وتعيشون به ، والآية كقوله : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾[1] أى من ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع .

﴿ **وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره** ﴾ :

أى وذلل لكم السفن بأن أقدركم على صنعها ، وجعلها طافية على وجه الماء ، تجرى عليه بأمره تعالى ، وسخر البحر لحملها ، ليقطع المسافرون بها المسافات الشاسعة من إقليم لجلب ما هناك إلى هنا ، ونقل ما هنا إلى هناك .

﴿ **وسخر لكم الأنهار** ﴾ :

تشق الأرض شقاً من قطر إلى قطر لانتفاعكم بها ، حيث تشربون منها ، وتتخذون جداول تسقون بها زروعكم وجناتكم ، وما أشبه ذلك .

﴿ **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين** ﴾ :

أى دائمين فى الحركة ، لا يفتران إلى إنقضاء عمر الدنيا ، كما قال : ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[2] ، وقال : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[3]

﴿ **وسخر لكم الليل والنهار** ﴾ :

يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم فى أمور معاشكم ، وما تحتاجون إليه فى أمور دنياكم ، والليل لتسكنوا فيه ، كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾[4] ، فالشمس والقمر يتعاقبان والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من ذاك فيطول ، ثم يأخذ من هذا فيقصر ، كما قال تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ﴾[5]

﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه** ﴾

أى هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم ، من كل الذى هو حقيق أن تسألوه ، سواء

(١) الآية ٥٣ من سورة طه .
(٢) الآية ٤٠ من سورة يس .
(٣) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٧٣ من سورة القصص .
(٥) الآية ٢٩ من سورة لقمان .

أسألتموه أم لم تسألوه ، لأن هذه الدنيا قد وضع الله فيها منافع يجهلها الناس وهى مُعدة لهم ، فلم يسأل الله أحد فى الأمم الماضية أن يعطيهم الطائرات والمغناطيس والكهرباء ، بل خلقها وأعطاها للناس بالتدريج ، ولم يزل هناك عجائب ستظهر لمن بعدنا .

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ :

أى لا تطيقوا عد أنواعها ، فضلا عن القيام بشكرها .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ كان يقول : (اللهم لك الحمد غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا)[1] .

وأثر عن الشافعى أنه قال « الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها » .

وقال شاعرهم :

لو كل جارحة منى لها لفة ... تثنى عليك بما أوليت من نِعَمِ
لكان ما زاد شكرى إذ شكرت به ... إليك أبلغ فى الإحسان والكرمِ

﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ .

أى إن الإنسان الذى بدل نعمة الله كفرا لشاكر غير من أنعم عليه ، فهو بذلك واضع للشكر فى غير موضعه ، ذاك أن الله هو الذى أنعم عليك بما أنعم ، واستحق إخلاص العبادة له ، فعبد هو غيره ، وجعل له أندادا ليضل عن سبيله ، وذلك هو ظلمه ، وهو جحود لنعمة التى أنعم بها عليه ، لصرفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه ، وتركه طاعة من أنعم عليه .

دعوات للخليل إبراهيم

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

(١) أخرجه البخارى فى الأطعمة (٥٤) . وأبو داود فى الأطعمة (٥٢) . وابن ماجه فى الأطعمة (١٦) .

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

المفردات : ﴿ **واجنبنى** ﴾ : أى أبعدنى ، وأصل التجنب أن يكون الرجل فى جانب غير ما عليه غيره ، ثم استعمل فى البعد مطلقا . ﴿ **وتهوى اليهم** ﴾ : أى تسرع شوقا وحبا : ﴿ **ويقوم الحساب** ﴾ : أى يثبت ويتحقق كما يقال قامت السوق والحرب : أى وجدتا .

فى هذا المشهد القرآنى الكريم ، يخبر تعالى عن أبى الأنبياء ابراهيم بأنه برىء من عبادة الأصنام ، فما كان يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركا ولكن كان حنيفا مسلما : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[1] .

وقال عز من قائل ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾[2] .

وفى هذا المقام أيضا احتجاج على مشركى العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه أدلة تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن فقال : ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنا** ﴾ .

وقد استجاب الله لدعائه فقال تعالى ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[5]

وقال فى هذه القصة ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنا** ﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها ولهذا قال : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ .

(١) الآيات ١٢٠ - ١٢٣ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٦١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت .
(٤) الآيتان ٩٦ ، ٦٧ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٥٧ من سورة القصص .

ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضا ، فقال ﴿ **رب اجعل هذا بلداً آمنا** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام** ﴾ .

ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته .

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس ، وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم ، كقول عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1] .

وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى ، لا تجويز وقوع ذلك .

وقال عبد الله بن وهب : عن عبد الله بن عمرو : إن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ **رب إنهن أضللن كثيرا من الناس** ﴾ الآية ، وقول عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية ، ثم رفع يديه ثم قال : (اللهم أمتى اللهم أمتى اللهم أمتى ﴾ وبكى فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمد ، وربك أعلم ، وسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ فقال : اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك .

قوله تعالى ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ .

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول ، الذى دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيدا ورغبة إلى الله عز وجل ، ولهذا قال ﴿ **عند بيتك المحرم** ﴾ .

وقوله ﴿ **ربنا ليقيموا الصلاة** ﴾ :

قال ابن جرير : هو متعلق بقوله ﴿ **المحرم** ﴾ أى إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم** ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره : لو قال أفئدة الناس لأزدحم عليه فارس والروم واليهود والناس كلهم ، ولكن قال ﴿ **من الناس** ﴾ فاختص به المسلمون .

وقوله ﴿ **وارزقهم من الثمرات** ﴾ : أى ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك ، وكما أنه واد غير ذى زرع فاجعل لهم ثمارا يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يُجْبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ﴾[2]

(١) الآية ١١٩ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٥٧ من سورة القصص .

وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته ، أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة ، وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها ، استجابة لدعاء الخليل عليه السلام .

قوله تعالى ﴿ **ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء * الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء * رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ :

قال ابن جرير يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال ﴿ **ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن** ﴾ : أى أنت تعلم قصدى فى دعائى ، وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك ، والإخلاص لك ، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها ، لا يخفى عليك منها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ثم حمد ربَّه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر ، فقال ﴿ **الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء** ﴾ : أى إنه يستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لى فيما سألته من الولد .

ثم قال ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة** ﴾ : أى محافظاً عليها مقيما لحدودها .

﴿ **ومن ذريتى** ﴾ : أى واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ **ربنا وتقبل دعاء** ﴾ أى فيما سألتك فيه كله .

﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى** ﴾ : وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه ، لما تبين له عداوته لله عز وجل .

﴿ **وللمؤمنين** ﴾ : أى كلهم ﴿ **يوم يقوم الحساب** ﴾ أى يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

وعيد الظالمين

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ

مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

المفردات : ﴿ **تشخص** ﴾ : ترتفع . ﴿ **مهطعين** ﴾ : مسرعين إلى الداعى . ﴿ **مقنعى رءوسهم** ﴾ : أى رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شىء . ﴿ **لا يرتد** ﴾ : لا يرجع ، ﴿ **هواء** ﴾ : خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة ، ويقال للجبان والأحمق قلبه هواء : أى لا قوة ولا رأى له كما قال حسان ابن ثابت يهجو أبا سفيان بن حرب :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... فأنت مجوف نخب هواء

﴿ **من زوال** ﴾ : أى من انتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء . ﴿ **وضربنا لكم الأمثال** ﴾ : أى بينا لكم أنهم مثلكم فى الكفر واستحقاق العذاب . ﴿ **عزيز** ﴾ : أى غالب على أمره ينتقم من أعدائه لأوليائه . ﴿ **وبرزوا** ﴾ : أى خرجوا من قبورهم . ﴿ **مقرنين** ﴾ : أى مشدودين . ﴿ **فى الأصفاد** ﴾ : أى فى القيود واحدها صفد . ﴿ **سرابيلهم** ﴾ : واحدها سربال : وهو القميص . ﴿ **قطران** ﴾ : دهنٌ يتحلب من شجر الابهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت . ويقال له الحفناء ، وهو أسود اللون منتن الريح . ﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾ : أى تعلوها وتحيط بها . ﴿ **بلاغ** ﴾ : كناية فى العظة والتذكير .

المناسبة

بعد أن ذكر عز اسمه أن جزاء من بدلوا نعمة الله كفرا ، وجعلوا له الأنداد جهنم يصلونها وبئس المهاد ، وطلب إلى عباده المؤمنين مجاهدة النفس والهول ، وإقامة فرائض الدين ذكر هنا تسلية لرسوله وتهديدا للظالمين من أهل مكة ، أى تأخيرهم وتمتعهم بالحظوط الدنيوية ليس إهمالا للعقوبة ، ولا لغفلة عن حالهم ، وإنما كان لحكمة اقتضت ذلك وهم مرصدون ليوم شديد الهول ، له من الأوصاف ما بُيِّنَ بعد ، وعليك أيها الرسول أن تنذر الناس بقرب حلوله ، وأنهم فى ذلك اليوم سيطلبون المرد إلى الدنيا

ليجيبوا دعوة الداعى ، وهيهات وهيهات .

صاح أرأيت أو سمعت براع رد فى الضرع ما جرى فى الحلاب

وقد كان لكم معتبر فى تلك المساكن التى تسكنونها ، فإنها كانت لقوم أمثالكم ، كفروا بأنعم الله ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ألا إن وعد الله لرسله لا يخلف ، وهو ناصرهم ، وخاذل أعدائه ، كما قال : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ وقال ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ ومحاسبهم فى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، يوم يخرجون من قبورهم للحساب أمام الواحد القهار ، وترى حال المجرمين يجل عن الوصف .

وهذا الذى قصصته عليكم تبليغ وإنذار ، ليتذكر به ذو العقول الراجحة ، وليعلموا أن الله واحد لا شريك له .

قوله تعالى :

﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ :

هذا وعيد من الجبار جل جلاله لكل ظالم عنيد ، فالظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر وكم أهلك الظلم من أمم .

بهذا نطق الكتاب الكريم :

﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾(١) .

وقال جل شأنه :

﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾(٣) ، وقال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾(٤) .

وقال : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾(٥) .

وقد يظن الظالمون أن إمهال الله لهم إهمال ، وغفلوا عن قوله تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين ﴾(٦) .

كما تناسوا قوله ﷺ : (إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم

---

(١) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٢) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٣) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٤) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٥) الآية ٥٩ من سورة القصص .
(٦) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القلم .

يفلته ﴾ ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[١] .

فلا تحسبن الله تعالى غافلا عما يعمل هؤلاء الجبابرة الطغاة ، واسألوا التاريخ عن هؤلاء الذين قال الله فى شأنهم . ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٢] .

ولابد للدنيا من انتهاء .

ولابد للآخرة من لقاء .

وإذا أمهل الله هؤلاء فإنما يؤخرهم ليوم ما أطوله ! إنه يوم يجعل الولدان شيبا فياله من خطب ما أهوله !

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[٣] .

إن هذا اليوم تشخص فيه الأبصار ، أى ترى الأبصار مرفوعة ، وترى الظالمين مهطعين ، مقنعى رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء : ﴿ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾[٤] — أى مسرعين — ﴿ خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ .

﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾[٥] .

وترى الظالمين مقنعى رؤوسهم — أى رافعيها — لا يرتد إليهم طرفهم — من شدة الهول ، لا تطرف عيونهم من هول ما يرون ، أما قلوبهم فإنها هواء كرؤوس التماثيل ، تشخشخ فيها الرياح ، ليس فى قلوبهم إيمان ولا تقوى .

فالظلم مرتعه وخيم :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

قوله تعالى ﴿ **وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله**

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٢) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية ٢ من سورة الحج .
(٤) الآية ٨ من سورة القمر .
(٥) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة المعارج .

مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ .

هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عن قول الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب : ﴿ **ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل** ﴾ كقوله ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾[١] .

وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق واكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾[٢] .

وقال تعالى مخبرا عنهم فى حال محشرهم : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾[٣] ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[٥] .

قال تعالى رداً عليهم فى قولهم هذا : ﴿ **أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال** ﴾ : أى أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا هذا بذلك .

قال مجاهد وغيره : ﴿ **مالكم من زوال** ﴾ أى مالكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة .

كقوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾[٦] . ﴿ **وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال** ﴾ :

أى قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر : ﴿ حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾[٧] . ﴿ **وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ :

روى العوفى عن ابن عباس كان يقول : ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، وكذا قال الحسن البصرى ، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ماضر ذلك شيئا

---

(١) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ من سورة المؤمنون .
(٢) الآيات ٩ - ١١ من سورة المنافقون .
(٣) الآية ١٢ من سورة السجدة .
(٤) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٣٧ من سورة فاطر .
(٦) الآية ٣٨ من سورة النحل .
(٧) الآية ٥ من سورة القمر .

من الجبال ولا غيرها ، وانما عاد وبال ذلك عليهم ، ويشبه هذا قول الله تعالى ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾ :

يقول تعالى مقررا لوعده ومؤكدا ﴿ **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله** ﴾ : أى من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة ، لا يمتنع عليه شيء أراده ، ولا يغالب ، وذو انتقام ممن كفر به وجحده ، فويل يومئذ للمكذبين .

ولهذا قال ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ : أى وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة .

كما جاء فى الصحيحين من حديث أبى حازم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصية النقى ليس فيها معلم لأحد)[٢] .

وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن داود عن الشعبى عن مسروق عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾ قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على الصراط[٣] رواه مسلم منفرداًبه دون البخارى والترمذى وابن ماجه من حديث داود بن أبى هند به ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه حدثنى الحسن بن على الحلوانى حدثنى ابو توبة الربيع بن نافع حدثنا معاوية بن سلام عن زيد يعنى أخاه أنه سمع أبا سلام حدثنى أبو أسماء الرحبى أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : (كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دفعة كاد يصرع منها .

فقال : لم تدفعنى ؟

فقلت : ألا تقول يا رسول الله ؟ فقال اليهودى : إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله . فقال رسول الله ﷺ إن اسمى محمد الذى سمانى به أهلى) .

فقال اليهودى : جئت أسألك .

فقال رسول الله ﷺ : أينفعك شيئاً إن حدثتك ؟

قال : أسمع بأذنى . فنكت رسول الله ﷺ بعود كان معه فقال : « سل » .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الإسراء . (٢) أخرجه البخارى فى الرقاق (٤٤) . ومسلم فى المنافقين (٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم فى المنافقين (٢٩) . والترمذى فى تفسير (سورة ١٤ : ٦) . وابن ماجه فى الزهد (٣٣) . والدارمى فى الرقاق (٨٨) . والإمام أحمد فى (٦ : ٣٥ ، ١٠١ ، ١٣٤ ، ٢١٨) .

فقال اليهودى : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟

فقال رسول الله ﷺ : إذ هم فى الظلمة دون الجسر ، قال : فمن أول الناس إجازة ؟

فقال : فقراء المجاهدين .

فقال:اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟

قال:زيادة كبد النون .

قال:فما غذاؤهم فى أثرها ؟

قال : ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها .

قال : فما شرابهم عليه ؟

قال : عين تسمى سلسبيلا .

قال : صدقت قال وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى ، ورجل أو رجلان قال : أينفعك إن حدثتك ؟ »

قال:أسمع بأذنى .

قال : جئت أسألك عن الولد قال : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإن اجتمعا فعلا منى الرجل منىَّ المرأة أذكرا بإذن الله تعالى ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنثا بإذن الله .

قال اليهودى : لقد صدقت . وإنك لنبى . ثم انصرف فقال رسول الله ﷺ :(لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه ومالى علم بشيء منه ، حتى أتانى الله به)[1] .

قوله تعالى ﴿ **وبرزوا لله** ﴾ : أى خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ **الواحد القهار** ﴾أى الذى قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب .

قوله تعالى : ﴿ **وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب** ﴾ :

وفى هذا اليوم العصيب ترى المجرمين الذين أفسدوا فى الأرض مقرنين ، أى جمع بعضهم إلى بعض فى القيود .

وقوله : ﴿ **سرابيلهم من قطران** ﴾ أى ثيابهم التى يلبسونها من قطران ، وهو الذى تطلى به الإبل .

﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾ أى تلفح وجوههم النار .

(١) أخرجه مسلم فى الحيض (٣٤) .

قال رسول الله ﷺ : (أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن ، الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة فى الميت والنائحة إن لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)[١] .

وقوله ﴿ **ليجزى الله كل نفس ما كسبت** ﴾ أى يوم القيامة ، ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ﴾[٢] الآية .

﴿ **إن الله سريع الحساب** ﴾ : أى إذا حاسب عبده فهو سريع الإنجاز ، لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

قوله تعالى : ﴿ **هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إلّه واحد وليذكر أولوا الألباب** ﴾ :

أى هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن ، كما قال فى أول السورة ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ الآية .

﴿ **ولينذروا به** ﴾ أى ليتعظوا به .

﴿ **وليعلموا أنما هو إلّه واحد** ﴾ :

أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إلّه إلا هو .

﴿ **وليذكر أولوا الألباب** ﴾ : أى ذوو العقول .

---

(١) أخرجه مسلم فى الجمعة (٢٩) . والإمام أحمد فى (٥ : ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤) .

(٢) الآية ٣١ من سورة النجم .